منى قطان

صورة شخصية لزوجة شاعر

منى قطان

صورة شخصية لزوجة شاعر

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٣
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٣
© منى قطان ٢٠٢٣
الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة
تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.
نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

صورة شخصية لزوجة شاعر / منى قطان - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٣.

تدمك: 9789778625547
١- منى قطان – مذكرات
٢- صلاح جاهين
٣- الفنانون المصريون
أ- العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٢٩٩٧ / ٢٠٢٢

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

إهداء

إلى روح فيرجينيا وولف.

المحتويات

الجزء الأول
الجزء الثاني
خاتمة

الجزء الأول

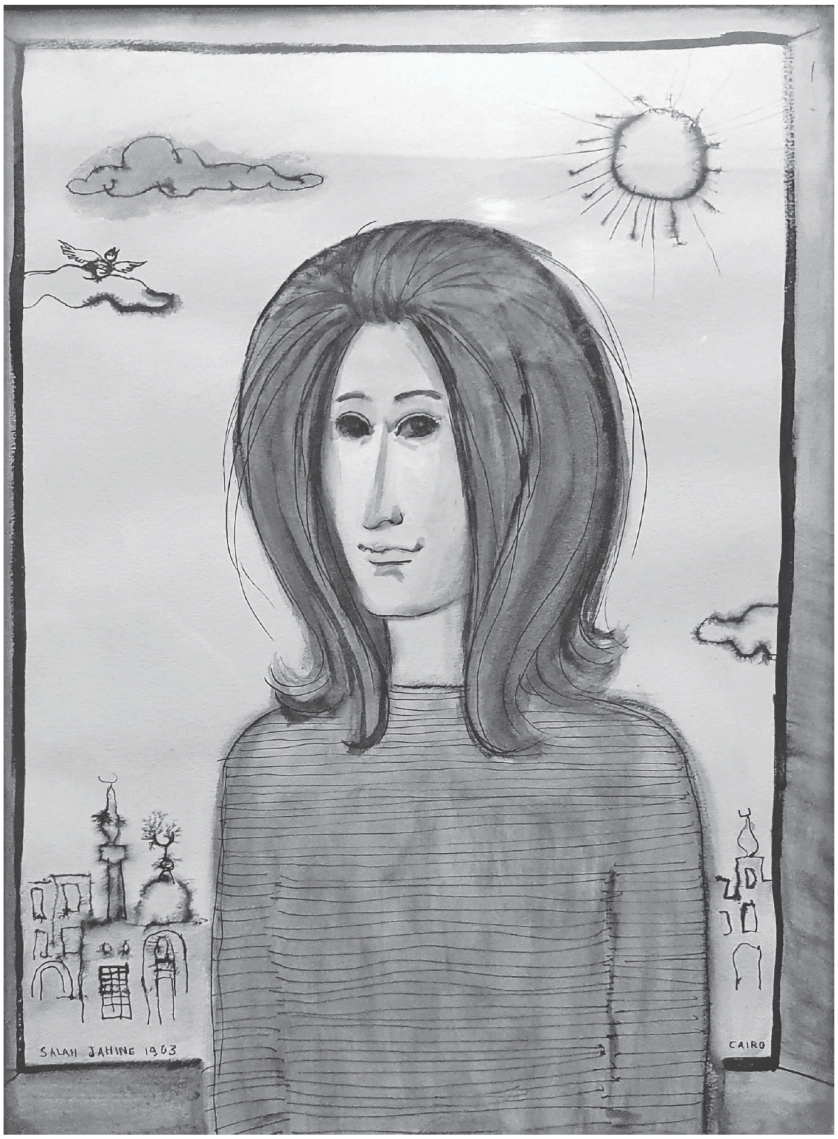

بورتريه لها بريشة شاعرها عام ١٩٦٣

كان يا ما كان منذ بدء الزمان، زوج من الأنفُس، ووشيجة تربط بين اثنين، رجل وامرأة أقسما، أحدهما للآخر، أن يعيشا معًا على الحلوة والمُرة. اختلفا في الاسم والجنسية، ووُلدا في منطقتين جغرافيتين تتباعدان في خريطة الأرض الواحدة عن الأخرى. لقد ابتدعا الحب، وضيَّعاه معًا، وكان اختيار أحدهما لرفيقه يحكي الكثير عمَّن قام بالاختيار. إن مفهوم الحب عندهما كان عملية مستمرة، لا كينونة ثابتة أو حالة عابرة تخترق القلب كالسهم وتمضي. كان الحب عندهما كالحديقة يحتاج إلى رعاية دائمة، دون اللجوء إلى مغامرات إحداث تغيير عضوي في شخصية المحبوب. كإن كتنشئة الطفل، يتطلب الصبر والكثير من الانتباه. لم يكن في شرعهما مسألة غريزية كالجوع وإشباعه؛ كما أنه ليس وهمًا أو جنونًا عابرًا. بالعكس، كان يبدو لهما محمَّلاً بالمعنى والحكمة؛ حتى إن كان فرويد قد اعترف في آخر عمره بأننا لا نعرف عن الحب إلا القليل. إن الجنس والتناسل مسألتان غريزيتان، بينما زواج المصلحة هو النمط السائد؛ أما الحب، فهو منطقة للاكتشاف، تحتاج إلى القدرة على إخضاع الصراعات النفسية الداخلية والصمود أمام الضغوط الخارجية. إن الزواج الناجح له، بشكل ما، أثر تحرُّري. فهو يرتبط بالثقافة والخبرة الحياتية ونضوج الشخصية، وليس أمرًا ينشأ فجأة في العقل والوجدان. إن بعض الأزواج يتمتعون بالشهرة، وبعضهم نكرات، لكن حكاياتهم ـ أعني حالات الزواج الناجح ـ هي في كل الأحوال، مؤثرة ومُلهمة، كأشعة الشمس على خد كوكبنا، فياضة بالضياء والطاقة والدفء.

حين بدأ المذياع يُتداول بين الناس، تساءل أحدهم: ما الحكمة في هذا الاختراع التافه؟! ساعتها لم نكن ندرك إلى أي مدى ستُستخدم هذه الأداة من قِبَل المؤسسات والحكومات في ترويج وبيع كل ما يلزم لتحقيق أهدافها التجارية والسياسية، والهيمنة على أفكار الناس وطموحاتهم، والتأثير على الرأي العام وتوجيهه، سواء في مجال الفن أو السياسة. لقد كُتب لهذا الاختراع أن يكون سلاحًا أشد فتكًا من المدفع الرشاش أو الطائرة المُسَيَّرة، وذلك بعد أن تطور المذياع وتحوَّر ليصبح صورًا تتحرك وتتحاور على شاشة تدخل كل بيت، أو على شاشات أكبر في أبهاء واسعة. لقد نبتت أغاني الحب وانتشرت كالفِطر على تل من آذان البشر، حتى طغت على ضجيج حروب لا تنتهي، أو طنين صراعات أكثر تعقيدًا تضمنها علاقات البشر وتشابكاتها الخشنة في الواقعين الاجتماعي والاقتصادي. لقد فقدت الحياة بساطتها الأولى. إن الهيمنة على الفكر والوجدان والرغبات قد فشت وعمَّت وتغولت كوباء لا تدركه الأبصار شوَّه مفاهيم الحب والسلام، والعدالة والأشواق الإنسانية، والتآلف بين البشر، وتخفَّى وراء أقنعة الحرية، سواء حرية التعبير، أو التفكير، أو العلاقات الجنسية. ويا لها من مفارقة، أن يُقيد ويُكمم مفهوم «الحرية» باستخدام الكلمة نفسها وتحت شعارها المحبوب! لقد اصطخب العالم منذ بدايات القرن العشرين بالصراعات، سواء بين الأمم أو بين الأفراد، مما نتج عنه العلل: علل النفس وعلل المجتمع؛ تحطُّم القلوب وتحطُّم العلاقات الزوجية. فماذا بالله فعلت الحرية بالناس؟ وكيف تقابل الزوجان في حكايتنا، وكيف استطاعا التغلب على كل هذه الأخطار، وخلقا ذلك المثال النادر والحدوتة الخاصة بهما في عالم يجمع ما بين السطحية والتعقيد؟ كيف أضافا إلى ملحمة الحب الصادق وحكاياته، سواء المعروفة أو غير المعروفة، فأعطياها ذلك الضوء الغامر والطاقة الفياضة والدفء الحار في عالم كئيب ومُتعِب، تتعرض موارده للنهب وطبيعته البكر للتشويه والانتهاك برًّا وبحرًا، وتتناثر فيه أكياس القمامة، بأيدي الفقراء والأغنياء معًا؛ قمامة العقل وقمامة الجسد، مما صعَّب على هذين العاشقين، اللذين تحابا ذات يوم، أن يلتقيا وتتشابك أيديهما؛ أن يتواصلا وأن يجد أحدهما الآخر، ويتعرف الواحد منهما على أمارات رفيقه، وسط كل العقبات والعكوسات؟

أرسلت بطلة الحدوتة لأمها خطابًا ذات يوم تسألها فيه: «ما الحب؟». ألم يكن سؤالًا غريبًا، من فتاة في السادسة عشرة، شاهدت الكثير من الأفلام الأمريكية، حيث يتخاصر الشباب ويتحاضنون في حلبات الرقص، ويبدو عليهم جميعًا أنهم يعرفون إجابة ذلك السؤال؟ وهل وجدت هي الإجابة؟

هل كان الحب الوليد، حين أتى، يستحق أن تدافع عنه وتحميه، وتسقيه ماء الحياة في مواجهة كل الصعوبات والتحديات؟ يتضافر الخاص والعام ليؤثرا معًا في علاقة الإنسان بالإنسان، وتفاعُل الإنسان مع الإنسان، والفهم الإنساني لمعاني السعادة والجمال. ويبدو أن هناك صلة تربط بين النزاع الزوجي وبين نمو وجدان الفرد، والمجتمع الذي يحيا فيه ذلك الفرد. وتظل المظاهر والمكانة الاجتماعية هما مقياس اختيار الفرد لشريك حياته، ويغذي هذا الأفلام السينمائية وعملية إنتاج نجوم السينما الجذابين الذين يقاربون الكمال بمساعدة من عمليات التجميل التي تطورت وانتشرت. إن عاطفة الحب كما يصفها الشعراء قد حلت محلها غزارة مفرطة من الصور والموضوعات المثيرة للشهوة، التي بلغت أحيانًا درجة تشويه مفهوم المتعة لتنحدر بها إلى أحط مستويات البورنوجرافيا.

لقد كانا، في عيون العالم الخارجي، زوجًا عجيبًا من العشاق، خاصة أنها كانت تبدو أصغر من سنها الحقيقية، بينما يبدو هو أكبر من عمره الفعلي بكثير. لقد وُلد في الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١٩٣٠، في اليوم نفسه الذي يُعتقد أن المسيح قد وُلد فيه. أما هي فقد جاءت إلى العالم ـ ربما ضد رغبة أهلها ـ في يوليو عام ١٩٤٤.

كانت أطول منه، ملامحها تقترب من مظهر الصبيان؛ أو كما يقول الطليان: «falsa magra». وكان هو بدينًا وشعره الخفيف في طريقه للصلع. ومن حيث الروح، كان مرحًا واجتماعيًّا، بينما هي خجولة وصموت. كان الناس يجتمعون عنده، حيث يعمل في مكتبه بمبنى جريدة الأهرام في موقعها القديم، ليأتنسوا بصحبته. وقد أتت ضمن هؤلاء، حين قدمتها له أمها (المرأة الوحيدة التي كانت تعمل محررة بالجريدة في ذلك الوقت ومنذ أوائل الخمسينيات؛ لكن المكان ازدحم بعد ذلك بعشرات الصحفيين الزائدين عن الحاجة من النساء والرجال، والذين تعيَّن معظمهم بالواسطة والمحاباة). وفي خلال شهرين، شعرا معًا بالحاجة إلى أن يرى أحدهما الآخر كل أسبوع، في مكان بعيد عن زحام الناس. فصارا يتمشيان معًا في شوارع القاهرة، أو يتواعدان للرقص في مطاعم إيطالية بالإسكندرية يشعران فيها بالراحة والدفء الحميم. وقد أثار دهشتها حين راقصته، لأنه تكشَّف على الرغم من بدنه الثقيل عن خفة في الرقص كأنه ريشة. وأثناء ذلك، كانا يتحادثان طوال الوقت: عن نفسيهما، عن الحياة، عن الفن، عن كوكب الأرض! وظلَّا يتكلمان، حتى قررا أن يعيشا معًا، إلى الأبد. وقد أسَرَّ لها، في بعض تلك الأحاديث، أنه كان في البداية فاقد البوصلة، وأنه ترك دراسته الجامعية قبل أن يكملها، مما أثار غضب والده وإحباطه. فقد أراد الأب أن يرى ابنه على صورته: قاضيًا أو محاميًا. كان مولوده الذكر الوحيد، الذي سيرث اسم العائلة، إلى جانب ثلاث من البنات، كانت كبراهن، الأصغر منه بعام، تضمر تنافسًا خفيًّا معه، إلى جانب الارتباط العاطفي العميق. وقد أنهت هي دراسة القانون لتفوز برضا الوالد. كان شاعرها ـ والضمير هنا لبطلة هذه الحكاية ـ يُسمِّي أخته بحب ودعابة «أبلة الناظرة»، لأنها كانت تعنفه أحيانًا لافتقاره للإحساس

بالمسؤولية. وقد نصحه أحد الأصدقاء بالزواج، لأن ذلك سوف يجبره على تحمل المسؤولية والاستقرار في وظيفة. وعملًا بتلك النصيحة، تزوج بمدرسة رسم كانت في السابق تعمل رسَّامة في المجلة نفسها التي عمل بها في بداية حياته الفنية. وكانت أمه قبل ذاك بنحو ثلاثين عامًا تفاخر صاحباتها بأنها أنجبت أجمل ولد في الدنيا. هكذا كان يحكي ساخرًا وهما معًا في حلبة الرقص. بينما كانت تراه هي بعينين مختلفتين؛ ربما بنفس العينين اللتين رأته بهما أمه من ثلاثين عامًا. كان يقول لها: «تقرصينني كما كانت أمي تفعل، تحت كوعي!».

كانت سمنته تتناقض مع قامة أبيها الفارعة، وتمنحها إحساسًا بالدفء والراحة، وتغمرها سرًّا بإحساس عميق بالأمان. كانت تسأل نفسها أحيانًا: هل أنا على الأرض أم على سطح القمر؟ كانت كل نجوم الكون اللامعة تحيطهما معًا، وقلباهما معًا يتلألآن، وقد جرفتهما الموسيقى، بل مجرد حضورهما معًا، أحدهما بالقرب من الآخر. كانا روحين مرهفتين، كلاهما قابل للكسر، لكن كلًّا منهما يستمد القوة من الآخر: من هذا الانجذاب العارم إلى شخصية ذلك الآخر.

كان مثلها قارئًا نهمًا منذ الطفولة. ذات مرة أغلقوا عليه مكتبة مدرسته الابتدائية في صعيد مصر، وظل بها محبوسًا طوال الليل، لأن المشرفين لم يلاحظوا وجوده عند موعد الإغلاق، وظلت أمه تبحث عنه في كل مكان. كما حكى لها، وهما في حلبة الرقص أيضًا، أن أباه اصطحبه يومًا ـ وكان يعمل أيامها وكيلًا للنيابة ـ إلى مشهد جريمة، وأن ذلك المشهد ظل منقوشًا في ذاكرته منذ ذلك اليوم البعيد: لقد رأى، وهو يرتجف من الرعب، امرأة شابة غارقة في بركة من الدم، بعد أن قتلها أحد أقاربها انتقامًا لشرف العائلة. يبدو أنها قد سلمت جسدها لرجل قبل الزواج منه وصارت حبلى. لقد أراد والده أن يعطيه درسًا في الرجولة وقوة الاحتمال. وربما كان ذلك المشهد وراء تعاطفه الدائم مع النساء واستماعه باهتمام لمشكلاتهن. وربما أيضًا ساعدته هذه الذكرى البعيدة في كتابة نص سينمائي عن أميرة سعودية قُتلت بالسيف لتورطها في حُب فتى من خارج أسرتها المالكة. كان لذلك المشهد المؤلم بالتأكيد أثر على أعصابه المرهفة، فقد تعرض له في سن مبكرة. ومبكرًا أيضًا تعلم جدول الضرب، وهو في الثالثة من عمره، فقد كانت والدته تطمح منذ البداية إلى أن تجعل منه رجلًا لامعًا. وقد حافظ طوال عمره على شهيته للكتب والتهامها؛ خاصة كتب التاريخ التي تحكي عن مصر القديمة والحديثة. كلاهما أحب التاريخ، لكنها «هي» لم تكن تعرف الكثير عن تاريخ العرب. وكان «هو» أيضًا قارئًا نهمًا للأدب، ومن الأعمال الأثيرة لديه كتاب «ألف ليلة وليلة». وكان يحب اقتناء النسخ القديمة من بعض الكتب، ويبحث عنها طوال الوقت، ويحرص على تجليدها لحفظها من التلف. وكثيرًا ما كانا يجلسان على رمال شواطئ الإسكندرية، تحت شمسية، وفي أيديهما كتب ضخمة، ويقرأ أحدهما للآخر بصوت عالٍ، قصائد من الشعرين الإنجليزي والفرنسي، وهو مشهد كان يثير بالطبع فضول العابرين. كان يفهم اللغتين فهمًا جيدًا للغاية، على الرغم من أنه لم يدرسهما أكاديميًّا على المستوى الجامعي. وأحيانًا كانا يتجادلان بحماس حول أحداث التاريخ فيظنهما الأصحاب يتشاجران كما يفعل العشاق. وقد باح كلاهما للآخر بأسرار حياته العاطفية الماضية بكل صراحة ولم يكتما شيئًا. وهو في الصبا، أحب جارة له وصديقة للعائلة، لكنه كان في ذلك العمر يرى الزواج فخًّا ـ وهو مفهوم للزواج قد صار شائعًا الآن ـ وأضاف أنه أحب تلك الصديقة بصدق منعه من أن يتقدم للزواج منها! وحين طلَّق زوجته فيما بعد، كان حزينًا ومضطربًا، لأن القانون لم يمنحها الحق نفسه لأن تفعل به ما فعله بها إن أرادت هي ذلك. وقبيل وفاته، بعد ذلك الطلاق بسنين طويلة، أعاد إلى عصمته على الورق زوجته المطلقة، لكي يكون لها الحق في التمتع ببعض معاشه والدخل الذي يترتب عن إذاعة أعماله الفنية. يا له من شيء نادر: أن ترى شاعرًا يعكس في أحاسيسه وسلوكه نفس الرقة التي تشيع في شعره! إنها تتذكر الآن آرتور رامبو، شاعرها الفرنسي الأثير، وكيف كان تاريخه الشخصي صادمًا، وكذلك كان كثيرون ممن قرأت لهم، وآخرون جايلتهم وعاصرتهم من بين

معارفها في مصر؛ فمنهم الانتهازي، ومنهم منتفخ الذات، وتشهد على ذلك خصوماتهم في تنافسهم على الشهرة والنجومية. كان هو مختلفًا؛ بريئًا كولد في سن المدرسة، يفعل في الحياة ما يحلو له: ما يحبه أكثر من أي شيء. كان يمزح حول هذه النقطة: أنه يفعل ما يحب، ويتلقى على ذلك أجرًا فوق ذلك! وقد صُدم أحد زملائه الأصغر سنًّا، واحد ممن قدمهم زوجها إلى القراء وصار من كبار الشعراء، صُدم إزاء الرقم الهزيل الذي اكتشف أن أستاذه يتقاضاه أجرًا عن أعماله الغنائية، وذلك حين اشترط التلميذ على بعض المتعاقدين معه أن ينال الأجر نفسه الذي يتقاضاه مكتشفه!

وعلى الرغم من موارده المحدودة، كان زوجها سخيًّا مع ضيوفه من زملائها في معهد الفنون المسرحية، الذين نزحوا إلى القاهرة من قرى صعيد مصر ودلتاها ليدرسوا فن التمثيل وجيوبهم خاوية. فكان يدعوهم أحيانًا إلى ولائم كبيرة في مطاعم صغيرة، ويظل يثرثر معهم حتى مطلع الفجر، وهم يخشون أن تطلع جريدة الأهرام في الصباح التالي ومربعه الكاريكاتوري الشهير عبارة عن مساحة بيضاء!

كان كلاهما يتشاركان في النظرة إلى الحياة، لا ترى المال محركًا للكون. ولهذا كان من السهل عليهما أن ينسجا معًا شرنقتهما ويبنيا عشهما ومستقبلهما المشترك، بالسهولة نفسها التي تقاسما بها تكاليف مصروف البيت، للتأكد من أن دخله يغطي احتياجات أطفاله. وقد رفض حتى أن يقتني لنفسه جهاز تكييف ما دام أولاده لم يحصلوا على مثله. وحين كانا يبحثان عن شقة يؤسسان فيها بيتهما، عرضت «هي» شقة جميلة تطل على النيل، لكنه رفضها للسبب نفسه.

كانا يجلسان على قمة العالم، يطلان على خريطة بيت المستقبل. ماذا لو صنعا بالمقص كراسي ومناضد وأسرَّة خيالية من ورق الكرتون. ماذا لو أنشآ وهيآ منصة، تشبه مسرحًا في الهواء الطلق، في الشرفة الواسعة التي سيمتلكانها في الدور العلوي للمبنى. كانا مركز العالمين، القديم والجديد. وكل الحالمين بالإمبراطوريات، قبل زمن الاكتشافات البترولية، قبل اختراع السيارات، كان عليهم أولًا أن يقهروا هذا الجزء من الكوكب، الذي يُدعى «الشرق الأوسط». لقد وافق ـ بناءً على اقتراح من أخته ذات التفكير العملي، ولما رأى زوجته تبدد مالها هنا وهناك ـ على أن يشتريا تلك الشقة ذات الموقع الجيد، القريبة من مبنى جريدة الأهرام ومن المسرح القومي الذي قدمت عليه مشروع تخرجها من معهد الفنون المسرحية. وقد وافقت على الفكرة واشترت الشقة، القائمة في منطقة عاشت فيها سنوات طفولتها. وكان اهتمامه «هو» بها مدهشًا. لم يفكر يومًا في أن يدخر شيئًا لنفسه. كان المال بالنسبة إليه مجرد وسيلة لتلبية الحاجات اليومية لبيتين وعائلتين، ولم يكن قَطُّ هدفًا في حد ذاته، بينما معظم الناس من حولها كانوا على العكس من ذلك. حين رأته أول مرة، كانت أمها نفسها هي التي قدمتها إليه، في مبنى «الأهرام» القديم، حيث شعرت البنت العائدة من إنجلترا بالألفة في ذلك المكان الحميمي. وكانت أمها قبل ذلك قد سألته النصيحة إن كان من الأفضل أن تظل ابنتها في إنجلترا، فكان رأيه أن عودتها ـ وهي المهتمة بالمسرح ـ مناسبة في جو

الازدهار المسرحي الذي كانت القاهرة تتمتع به في عقد الستينيات. قالها وهو يجهل تمامًا أنها ستصبح زوجته الثانية!

كان مصريًّا، وتجري في عروقه بعض الدماء الألبانية؛ متسقًا مع ذاته، ويستطيع أن يعبر عنها بالعامية بفصاحة ندر أن يوجد لها مثيل في الفصحى، على الرغم من أنه نشأ في بيئة ثقافية ترى الفصحى اللغة الأسمى للتعبير الأدبي. وقد ثار الجدل، في ذلك الوقت، حول هذه القضية (جدارة الفصحى أم العامية)، وكان معظم كُتَّاب الفصحى يعدون أنفسهم أرقى أدبيًّا من كُتَّاب العامية. إلا أن لغة كل يوم كانت تصل إلى قلوب الناس أسرع وبسهولة أكبر، والأهم، في هذا السياق، قلبها هي!

كانت القاهرة محل ميلاده، وبالتحديد حي شبرا، الذي كان في ثلاثينيات القرن الماضي منطقة هادئة تسكنها الطبقة الوسطى. وهو الحي نفسه الذي سكنته في الماضي المغنية الفرنسية-الإيطالية الشهيرة داليدا، التي كتب لها «هو» فيما بعد عديدًا من الأغاني الذائعة، لكنه لم يمكث طويلًا في ذلك الحي، لأن أسرته تنقلت كثيرًا في سنوات صباه ما بين أقاليم مصر المختلفة، بحكم تنقلات والده الوظيفية ما بين نيابات المحافظات. أما شبرا الآن، فقد تحولت إلى حي شعبي مكتظ بالسكان، تغلب عليه العمارات العالية التي حلت محل الفيلَّات القديمة.

حين طلبت الدولة شهادة ميلادها، ضمن أوراق أخرى، لإتمام إجراءات زواجهما، اكتشفت أنها لا تملك واحدة. لم تكن متأكدة من هويتها؛ إحساسها الشعري كان بالفرنسية، ولغة تفلسُفِها الإنجليزية، أما العربية فكانت فاقدة الثقة حين تستخدمها. كلمات طفولتها الأولى قالتها بالإيطالية، معبرة عن صداقتها مع الجارة ذات السنوات الخمس. أما مخاوفها فقد سجلتها بالفرنسية في مفكرة دوَّنت فيها يوميات. وأما تعليمها الثانوي والعالي فكان بالإنجليزية. كان هذا راجعًا للهيمنة الإنجليزية والفرنسية المزدوجة على منطقة الشرق الأوسط في زمن الحربين العالميتين وما بينهما. فلكي تتلقى تعليمًا جيدًا، كان عليك أن تلتحق بمدارس أجنبية. ولأن الفلسطينيين فقدوا أرضهم، كان عليهم تعويض ذلك بالاستثمار في التعليم الراقي الذي يمكِّن أولادهم من الحصول على وظائف جيدة في المستقبل.

مع صديقة الطفولة الإيطاليةِ «إدميا» في جريدة «الأهرام» عام ١٩٥٦

لكل هذا، تطلّب الأمر وقتًا طويلًا ومشقة كبيرة حتى نجحت أخيرًا في قراءة قصائده بالعامية المصرية واستيعابها والاستمتاع بها. فكل ما تعلمته من قبل من هذه اللغة، كان بعض العربية الفصحى، كمادة فرعية جانبية، في جميع المدارس والبلاد التي مرت بها، حتى في مصر. ولكنها مع تعودها وألفتها التدريجية للغة العربية افتتنت بعمق وبساطة وروعة شِعره. والشيء الوحيد الذي كانت «هي» متيقنة منه: أنها تحب ذلك الرجل؛ أنها تحب، وبعمق، رجلًا لم يكن يشبه في شيء نجوم السينما في هوليوود، إلا أنه كان أروع إنسان عرفته واستطاعت أن تتواصل معه، وهي الخجولة الصموت بطبعها؛ حتى إن مجموعة من السيدات، دفعهن الفضول للتعرف على الفتاة التي وقع شاعرهن في غرامها، أصبن بخيبة أمل كبيرة حين قدمها إليهن. فلقد تحدث لهن عنها طويلًا طويلًا، حتى توقعن أن تتجلى عليهن عند اللقاء «Diva»، لكنهن وجدن في المقابل مخلوقة صامتة خائفة، ذات شعر معقوص على هيئة ذيل حصان، وأنف طويل، وبسمات خجول.

لقد حصلت على جائزة في مادة التاريخ بمدرستها الثانوية الإنجليزية، لكنها كانت فاقدة الصلة بتاريخها العربي. وكان «هو» يتألق ويتجلى وهو يصف ويحكي لها عن الآثار الفاطمية التي يمران بها في جولاتهما بأحياء القاهرة القديمة، فيتيح لها لمحات لعالم كانت تجهله، بل ـ ربما ـ تتجاهله. كانت لا تزال تحتفظ بالكتاب الذي ربحته كجائزة عن بحثها التاريخي: رواية «صورة شخصية للفنان في صباه» لجيمس جويس، وكانت تقرأ له مقاطع منها، وهما جالسان في مقهى أثري قبل صعودهما معًا جبل المقطم لكي ينعما بإطلالة بانورامية على القاهرة القديمة. وكان يجلس حولهما في ذلك المقهى خلق عاديون يدخنون الشيشة، وربما كانوا يتخيلون ساعتها أن شاعرهم يصحب سائحة أجنبية. أينما ذهبا، كان الناس يحيونه. لم تكن تحسب أنه مشهور ومحبوب إلى هذه الدرجة. فقد ظنت في البدء أنه مجرد رسَّام كاريكاتير يعمل بالصحيفة نفسها التي كانت أمها تعمل بها.

كانت السنوات الثلاث التي قضتها في إنجلترا أفضل سنوات تطورها الفكري. فقد كانت قبلها تلميذة متوسطة لم تُظهر قَطُّ أي تميز، إلا أن مدرسيها الإنجليز أعطوها من الانتباه ما لم تنله من قبل. وكانت مسز إيسام ناظرة مدرستها الداخلية، بشعرها الأبيض وبسمتها الدافئة، كثيرًا ما تمدحها في اجتماعاتها بالتلاميذ بمكتبها، حيث كان معظمهم يجلس على الأرض من كثرة الزحام وقلة المقاعد. لقد كانت تلك الاجتماعات تمنحهم جوًّا بيتيًّا أليفًا، تعلق الناظرة خلاله على أدائهم الدراسي خلال الأسبوع. هل كان مدرسوها ـ حين منحوها رواية جويس التي تحوي سيرته الذاتية ـ يريدون أن يُلمحوا إلى أنها تملك موهبة أدبية واعدة؟ لو لم يكن الأمر كذلك، لماذا لم تكن جائزتها كتابًا في التاريخ؟ كثير من أصدقائها ومعارفها قالوا فيما بعد عنها إنها يمكن أن تصبح كاتبة متميزة؛ إلا أن شيئًا ما كان دائمًا بطريقة أو أخرى يحول دون ذلك. كانت صغيرة السن، مبلبلة وفاقدة الهدف ـ كما كان هو في سنوات تلمذته ـ تعيش حياة وجودية، من يوم ليوم، دون طموح

محدد. لكنه «هو» كان عبقريًّا، كاتبًا غزير الإنتاج، وفنانًا عديد المواهب والقدرات. أما «هي» فقد كانت خرساء. لم تستطع حتى أن تحسم الأداة المتاحة الظاهرة أمامها: اللغة، ناهيك عن النوع الأدبي. كان بليغًا شديد الفصاحة، بينما هي: قميص كتافي مزموم على لغات عدة ويكاد أن يكون مشلولًا. أكان ذلك كذلك؟ ربما تعدى الأمر ذلك. لقد جفلت حين أراد هو أن يجاملها، قال إن له صديقًا متزوجًا من فلسطينية، وإن ذلك الصديق أخبره أن الفلسطينيات زوجات رائعات. جفلت لأنها أدركت فجأة مقصده. إنه يشير لهويتها الأصلية، التي كانت ضبابية في وجدانها. في الواقع، كان هو يعرف عن فلسطين أكثر مما تعرفه. البرتقال هناك له مذاق خاص! آه، لا بد أن يكون هذا هو السبب في أن جدها كان دومًا يحمل برتقالًا في زياراته لها بمدرستها الداخلية الفرنسية في القاهرة.

مع الأم جاكلين خوري في برج القاهرة عام ١٩٦٣

هل كانت أمها تتحدث العامية المصرية بلكنة شامية؟ لا تستطيع أن تتذكر. صديقتها رينيه ـ التي كانت تعيش مع أمها، حين كانت هي في مدرستها الثانوية بإنجلترا ـ تقول ذلك. ربما كانت رينيه تعرف أمها معرفة أوثق. فقد كانت كلتاهما ما يُطلق عليه الآن مصطلح: «ناشطة». كانت

الأسرتان جارتين في حيفا، وهربتا في التوقيت نفسه: واحدة إلى العراق والأخرى إلى مصر. إلا أن أسرة رينيه كان عليها أن تفر مرة أخرى، إلى لبنان، بعد قيام ثورة في العراق. كانت رينيه تتمنى أن تدرُس في القاهرة، حيث يعيش زعيمها المحبوب جمال عبد الناصر. كان عبد الناصر مثلها الأعلى، بعروبته ودفاعه عن فلسطين وقضيتها. وعلى هذا، طلب والد رينيه من جيرانه القدامى، وأصدقاء العائلة الآن، في القاهرة أن يستضيفوا رينيه عندهم، ووافقوا هم بحرارة. وفي القاهرة، قابلت رينيه الرجل الذي سيصير زوجها. قابلته في الجامعة، حيث كان أبناء الفلاحين يستطيعون في ذلك الوقت الحصول على تعليم مجاني. وكانت أمه تعيش في قرية لا تضم سوى مدرسة إعدادية. وقد أعطته الأم حمارًا ليذهب به يوميًّا إلى قرية مجاورة تضم مدرسة ثانوية. كانت رينيه مغرمة به إلى حد الوله. ولقد تزوجا وسافرا معًا إلى لبنان. لكن كان عليهما الهرب مرة أخرى، هذه المرة من لبنان، لاشتعال الحرب الأهلية هناك في السبعينيات. وحط بهما الترحال في ألمانيا، بينما استقرت بعض أخوات رينيه في أمريكا، وبقيت واحدة في لبنان. وحصلت رينيه على منحة لتعليم أبناء اللاجئين العرب في برلين، وجمعت منهم أطفال الشوارع الذين كانوا تحت رحمة الموساد ويواجهون مصير بيع المخدرات أو السرقة. وقد نجحت أيضًا في تطوير إدارة المدرسة، لكن مصيرها كان الإغلاق في النهاية. إلا أن هذا لم يوقف رينيه عن افتتاح مشاريع أخرى. وكانت في هذا تشبه أمها «هي» أكثر منها! كانت هناك استمرارية وصمود روحي ظل عالقًا بشخصية رينيه من خلال تفاعلها الطويل مع أمها (وضمير المِلكية هنا لصاحبة الحكاية).

لقد عادت رينيه للظهور في حياتها فجأة. وكان شاعرها قد رسم لرينيه بورتريهًا ظلت محتفظة به في دولابها لسنوات. وذات مساء قررت أن تخرجه من محبسه وتعلقه على الحائط. وبعدها بأيام قليلة، قرأت في الصحف خبر وفاته. ومنذ ذلك التاريخ، صارت تزور القاهرة كثيرًا لتواسي صديقتها. وأحست «هي» بحميمية تشبه رؤية الأهل. كانت رينيه مقاتلة عنيدة واستطاعت أن تقهر ظروفًا قاسية عديدة حتى أفلحت في النهاية في تنشئة ولديها ليكونا رجلين ناجحين. وكانت أقسى الضربات عليها اكتشافها أن زوجها على علاقة بسكرتيرته الألمانية وأنها حملت منه، لكنها قررت أن تواصل حياتها على الرغم من الألم، وصارت تكثر من زياراتها لأخواتها في الولايات المتحدة، وصحبت في تلك الزيارات أحفادها على الرغم من صغر سِنهم لتقوي روابط العائلة. إن تلك الروابط، بعكس طبيعة أهل الغرب الفردية العملية، تظل شديدة الأهمية بالنسبة إلى الشرقيين.

لقد فقد جدها «هي» صوته نتيجة إصابته بسرطان الحنجرة. وكان قبل ذلك نقيب الصحفيين الفلسطينيين، وكان خطيبًا مفوهًا اشتهر بلقب «بلبل المنابر». فيا لسخرية القدر! إذا ما قارناه بأعدائه الذين غزوا أرضه، وصارت معظم منصات الإعلام العالمية في حوزتهم تساندهم في قضيتهم القائمة على التزوير!

أثناء إقامتها بإنجلترا، كانت أمها تراسلها بالفرنسية. كان تبديل المدارس واللغات محيرًا ومضعفًا

لها، ولم يساعدها كثيرًا في التغلب على رُهاب الصفحة البيضاء. كلما أمسكت بالقلم شلّها الرعب، بينما كان زوجها المستقبلي لديه القدرة على التعبير عن نفسه بمنتهى السهولة. ألم يكن هذا كافيًا لها؟ لِمَ تعبأ إذن بالكتابة؟! الكتابة نشاط يحتاج إلى العزلة والتأمل ووضوح الذهن، بينما هي لا تستطيع أن تدمج خبراتها الشخصية مع أحداث العالم في كُلٍّ واحد منسجم. ولقد اتجهت إلى المسرح في محاولة منها لكسر عزلتها والاندماج بالآخرين في عملية خلق عمل فني، وبعث كلمات الورق للحياة على خشبة المسرح، لا دفن عقلها الضبابي في ورق ميت ربما لن يستطيع أحد أن يفهمه.

لقد سألته وهما في رحلة شهر العسل، والطائرة تحلق بهما من بلد أوروبي لآخر، عن سر نظرة الفضول المندهشة في وجوه بعض الشباب حين كانوا ينظرون إليها، فقال لها: «لأنهم اكتشفوا أنك من مواليد حيفا لكن تعيشين في مصر، بينما هم وُلدوا في إيطاليا لكن يعيشون في حيفا». لم ترَ في ذلك الوقت وجه الغرابة. فقد تنقلت مع والدها في كثير من البلدان، ولم يتَرَبَّ في وجدانها شعور بالانتماء لمكان محدد. كانت تشبه إحدى سيارات القرن الحادي والعشرين، التي جرى تصنيع عناصر تكوينها كُلٍّ في بلد، أينما كانت الأيدي العاملة متوفرة ورخيصة. لم تشعر يومًا بأنها تنتمي إلى ثقافة معينة. لم تملك يومًا ترف تَبنِّي قيم وعادات مجتمع بعينه وإجاباته سابقة التجهيز على ما يؤرقها من أسئلة. كل ما كانت تعرفه أنها لم تكن تشعر بالراحة إلا معه «هو»؛ لم تكن تحس أنها في بيتها إلا في حضوره؛ وأنها وقعت فجأة في هواه ـ في شهرين ـ وهي في التاسعة عشرة من عمرها، ربما كان السبب أنه بدا راضيًا بها كما هي.

وعلى الرغم من أنه كان يكبرها بأربعة عشر عامًا، كانت فلسفته في الفن قد جعلته يبدو كولد في سن المدرسة يلهو بالكلمات، يبني ويعيد الأفكار والمعاني كما يفعل طفل بمكعباته الملونة ليخلق منها أشكالًا شتى حتى يفرغ من لعبته متجهًا إلى أخرى، بحثًا عن المزيد من التحدي والجدة والتشويق. مثلًا، استطاع أن يكتب قصائد بالعامية المصرية على نسق القالب الشيكسبيري للسوناتا الأوروبية. لم تستطع قَطُّ أن تفهم ما السر في رفض كُتَّاب العربية الفصحى لأولئك الذين اختاروا الكتابة بالعامية؛ كما لو أنهم صاروا بذلك ينتمون إلى طبقة دنيا تدنس بوجودها قداسة أبراجهم العاجية. إنهم يذكرونها بقساوسة روما، في التاريخ الأوروبي، الذين هالتهم ترجمة الكتاب المقدس من اللاتينية إلى الإنجليزية. لم تكن تشعر في حضوره بأي صدمة ثقافية؛ ربما لأنها جرَّبت واستوعبت صدمات كثيرة في عمر قصير أنفقته في التجوال. وربما كانت هذه الصدمات المهضومة قد كوَّنت وشكلت معًا رُهاب الكتابة المُلِح عندما كبرت، وحاولت عبثًا مرارًا التعبير عن ذاتها. ربما كان السبب في ذلك إحساسها أنها لن تجد أبدًا متلقين ملائمين لها. وكيف لها أن تفض اشتباك عناصر تجربتها المتناقضة المتصارعة لكي تصنع معًا في النهاية ذلك الكُل المنسجم الذي تبحث عنه؟ إضافة إلى هذا، الناس تشغلهم لقمة العيش فلا يجدون الوقت ولا المال لاقتناء

الكتب وارتياد المسارح.

كل ما كانت تعرفه أنه كان يعدها إنسانة مرهفة وذكية، بل وحتى حاضرة الفكاهة. سألته مرة على سبيل الدعابة إن كان الناس في مدينة البندقية ـ التي زارتها مرة بصحبة أبيها وتحمل لها ذكريات مُرة ـ يسبحون بدلًا من السير في جنازات موتاهم. كانت في تلك الزيارة القديمة تشعر بالمرارة إزاء أبيها الذي كان يطلب منها ألا تناديه بـ«بابا» في حضور الفتيات الجميلات اللاتي يحاول بدء علاقة معهن. وللمرة الأولى ـ وربما الأخيرة ـ تسكر، عندما شربت بالخطأ كأس أبيها المترعة بالكونياك في ظلمة الملهى الليلي شحيح الضوء، بينما كان هو مشغولًا بالرقص. وحين خرجا إلى الهواء الطلق تقيأت، ووجدت نفسها تركل المارة وتسب الفتيات الجميلات بالإيطالية! وفي اليوم التالي، طلب منها أبوها أن تعتذر لهن في الفندق.

كان «هو» يستمتع بما تنشده له من أشعار شيكسبير وجون دَن. وكان هذا يشعرها بالرضا والثقة بالنفس؛ كونها مقبولة، بل ومحبوبة. معه لم تشعر قَطُّ بالخجل؛ بل كانت جريئة ومترعة بالحيوية والنشاط.

كانت تجلس على قمة العالم، وهي تشاهده يصنع أشكالًا من الورق المقوى لمناضد ومقاعد يحركها خياله في أنحاء الشقة الواسعة، وهما ينظران إلى خريطة عشهما المنتظر، الذي سيعيشان فيه ما بقي لهما من أيام. كانت تعجَب لنفسها: كيف تتواصل معه بهذه السهولة، لماذا «هو» بالتحديد؟ الفتى الذي التقته في النمسا كان شاعرًا ورسَّامًا أيضًا. وفوق هذا كان وسيمًا ويشبه إلفيس بريسلي، تتطاير خصلات شعره الناعم وهو يراقصها الروك آند رول. وكانت سنه مقاربة لسنها. فلماذا إذن «هو»؟ ربما لن تعرف أبدًا.

أو ربما حين تفقده ستعرف. حين يكون الربح عظيمًا، تكون الخسارة أعظم. إنه المكسب الذي لا يرقى إليه مال، المكسب الذي لا يُدره إلا الحب غير المشروط، والذي يقود وحده لسلام النفس وسط كل تقلبات الروح وعواصف الوجدان. سوف تعرف الإجابة ربما بعد اختفائه، بعد أن تسقط «هي» من جديد في قعر هاوية الشك، متسائلة مرة أخرى: إلى من تنتمي وما معنى الحياة؟ كيف تأمل أن تكتب في يوم ما، وهي لا تستطيع التواصل إلا معه وحده؟ كلما كانا معًا كانت الكلمات والمعاني تنساب. هل هي من الطبقة المتوسطة، أم من الشريحة العليا للطبقة الوسطى؟ لا يهم. كانت أمها صحفية، وكان راتبها يكفي لأن تقضي الأسرة كل صيف أسبوعًا أو أكثر على شواطئ الإسكندرية. كانت تعتز بتلك الأيام من سبتمبر في كل عام (الذي كان أرخص من شهور أوج الصيف) حيث تكون أمها ملكًا لها وحدها. كانتا تدونان معًا مصاريف كل يوم ـ وهي عادة كبرت معها حتى الشيخوخة ـ لربما استطاعتا أن تمدا المصيف يومًا آخر، تتمددان فيه معًا على رمال البلاج وتلعبان لعبة «السلم والثعبان». نعم، كانت الحياة ولا تزال مثل تلك اللعبة، تأخذك لأعلى سلم الآمال للحظة، ثم ترمي بك كآدم وحواء إلى السفح عبر حلزون الثعبان المتلوي، بأمر الحظ

وزهر الحظ!

كان أبوها ـ الذي لم يكمل تعليمه الثانوي ـ في البدء مفلسًا، وهرب إلى السودان، لكنه فجأة أنعم عليه الحظ بميراث ضخم، بعد أن أمضى فترة عصيبة من الفقر والبطالة. وقد حكى لها كيف أنه كان ممتلئًا حقدًا مريرًا على أمه التي تزوجت بعد موت أبيه من وغد محتال نهب كل ميراث الأسرة. أما والداها «هي» فقد هربا معًا وهما في سن المراهقة ليتزوجا ضد رغبة أسرتيهما، لينفصلا وأمها ـ البالغة عندئذ ثمانية عشر عامًا ـ حبلى بها في ستة أشهر. وقد حصلا بعد ذلك بسنين من الكنيسة الكاثوليكية في روما على وثيقة تطليق رسمي يلغي زواجهما. وعلى الرغم من أن أبويها كليهما على قيد الحياة، كانت تشعر باليُتم. وقد عاشت مع زوجها من ساعات الحياة أكثر مما أنفقته مع الأسرة التي أنجبتها، خاصة بعد أن قرر زوجها أن يعمل من المنزل، ويرسل كاريكاتيره اليومي إلى الجريدة في مقرها الجديد. كانت تخرج كل يوم إلى المعهد أو لقضاء المشاوير وتعود لتجده في البيت يقرأ أو يرسم أو يكتب.

لقد قضت معظم طفولتها في مدارس داخلية، حيث كانت القيم المادية وكل ما له علاقة بالمال مسائل مهملة. ربما كانت تشعر بالتوحد مع الراهبات المنعزلات اللاتي يعشن حياة التأمل لقيم مجردة كالبر والعفاف والشفقة والهيبة. لقد وُلدت ضمن الطائفة الكاثوليكية، وكانت جدتها أرثوذكسية، وتحوَّل والدها إلى دين الإسلام لأسباب تعود إلى قوانين الزواج والطلاق. أما المناخ الفكري بين مثقفي مصر الستينيات من القرن الماضي فكان يميل لاعتناق النظريات الاشتراكية التي وُلدت في الغرب كرد فعل لقسوة مجتمع الرأسمالية الصناعية، بكل ما تحمله تلك العقائدية من تزمت فكري وعقلية متحجرة بدت لها في بعض الأحيان لا تقل جمودًا وتطرفًا عن بعض العقائد الدينية المتشددة. فقد كانت حين تنصت لحديث أصحاب أمها تسمع جدلًا حول لينين، ما قاله أو لم يقله، بنفس نبرة الإجلال والتقديس عند أتباع عيسى المسيح والنبي محمد!

إلى أي شيء إذن تنتمي «هي»؟ هل هي مسلمة، أم كاثوليكية، أم اشتراكية، أم أرثوذكسية؟ لقد كانت تراقب الكبار من حولها، وتمتص معلومات تزيد من حيرتها وتشوُّشها فيما يشبه التعلُّم الصامت، الذي وصل ذروته حين وجدت كل أحبائها في حالة خلاف ضارٍ وبينهم ما صنع الحداد. لم تكن تريد الانتماء لأي هوية أو طائفة. ما أهمية أن تكون صفتها هذا أو ذاك؟ أليس يكفي أن تستنتج لنفسها ما يبدو لها منطقيًّا، وتستخلصه من فوضى تجاربها وخبراتها؟ إلى أي مصير تتجه الإنسانية؟ في عالم التناقضات هذا الذي هو من صُنع الإنسان؛ تناقضات لا توجد في واقع الأمر، ولكن كان يجب تصنيعها لكي تهيمن أمم على أمم وتنهب خيراتها الطبيعية! هل سيدمر هذا العالم نفسه بنفسه؟ أم أن كارثة طبيعية ما ستحدث، وتدمر كل شيء: الموارد والأطماع التي تثيرها، ولا يبقى شيء سوى الصراصير على سطح هذا الكوكب الملعون؟! هل هذا هو السر وراء بحث النخبة المنَعَّمة عن مجموعة شمسية أخرى بها كوكب يشبه في صفاته أرضنا ليفروا إليه حين

تحيق بأرضنا الكارثة؟

بعد خروجها إلى العالم الواسع، ظلت تتعرض لصدمات ثقافية واحدة بعد الأخرى مع تنقلها من بلد إلى آخر في سياحة إجبارية. زارت فيما زارت قصر «شونبرن» في النمسا، وحدائق «تيفولي» في روما، وهناك شهدت جلسة برلمانية كان الحاضرون القلائل فيها من النواب يغطون في نوم عميق، وذلك لتتعرف على طبيعة الحكم الديمقراطي! كما جلست في بارات ألمانيا حيث تقدم البيرة وهي تفور في أقداح هائلة الحجم، وتُصب من برميل. وتسلقت جبال الألب، وصعدت برج إيفل وبرج بيزا المائل. فقد عبر بها والدها أوروبا كلها وهو يقود سيارته الجديدة، حتى وصلا برشلونة، وشاهدا هناك رقص الفلامينجو ومصارعة الثيران. وأينما ذهبت، كان الناس يظنون أنها من أهل البلد. فذات مرة، وهي في محل كوافير بإسبانيا، اعتقد الزبائن أنها الأخت التوأم لمصففة شعرها! وكان أبوها كريمًا، فاشترى لها الملابس من كل بلدة زاراها. كيف لها أن تشعر بالتعاسة وهي تلف العالم؟! وبدلًا من الثياب، كانت تجر والدها من يده نحو المكتبات وتعبئ حقائب السفر بكل ما نشرته دار بنجوين من كتب. كان والدها يضحك بينه وبين نفسه من ابنته العجيبة هذه!

كيف إذن وجدت روحًا تشبهها وهي في تلك السن الغضة؟ فحين تعرفت عليه لم تكن قد جاوزت التاسعة عشرة. كان معجزة: هذا التوديع المفاجئ للعزلة، لكي تشاهد العالم معه، ومن خلاله، ولكي يبنيا معًا عش المستقبل فوق قمة العالم؛ العالم الذي لم يعد غير مفهوم كما كان يبدو لها. فهذه العلاقة الجديدة صارت توفر مساحة مناسبة لمناقشة وعلاج أزمة هويتها الكامنة. لقد صارت تشعر بأنها تعيش حياة مستقلة، لكنها متكاملة وذات معنى وهدف، في داخل إطار مجتمع شرقي نمطي، بكل ما فيه من إيجابيات وسلبيات. كان يبدو أن كليهما مدرك لمشاعر الآخر وتجاربه. صار للحياة معنى أكبر، ودفء أعظم، وأصبحت الحياة ممتعة على حين فجأة. فلم تكن، وهي السائحة الأبدية، تشعر بلذة التجوال مع والدها في أنحاء العالم، أو تستمتع بثروته، بنفس اللذة والاستمتاع برحلة الصيف القصيرة إلى الإسكندرية مع أمها ذات الراتب المحدود.

في مزرعة الشرقية

أما رحلة شهر العسل المؤجلة مع زوجها، فقد زارت فيها البندقية من جديد وبعثرت المال على الزجاج المورانو. وقد ظن أصحاب المحل أنها إيطالية، في صحبة زوجها الشيخ السعودي المقَتِّر، حين حاول «هو» إقناعها بأنهما اشتريا ما فيه الكفاية، وأنها يجب عليها أن تكف عن بعثرة نقودها.

وأما رؤية القاهرة عبر عيني شاعرها، فكانت المتعة الكبرى. فقد كان يملك من الصفات الجميلة المتأصلة ومن الرؤية العميقة والمتزنة للحياة ما لم تجد مثله عند أي إنسان آخر عرفته. وفي كتاب «التجربة العربية» الذي يحكي فيه المخرج البريطاني لفيلم «موت أميرة» عن قصة صُنع الفيلم والأشخاص الذين عرفهم في المنطقة العربية أثناء عملية تصوير الفيلم والتحضير له، ثمة فقرة عن شاعرها وصفه فيها ذلك المخرج بأنه كان «أعز أصدقائنا في مصر»، مشيرًا إلى نفسه وأفراد طاقمه. ويمضي قائلًا: «لقد أخذنا من يدنا وقادنا إلى داخل أماكن لم نكن لنزورها بدونه، وهناك فتح عيوننا لنرى مشاهد لم نكن لنراها دون مساعدته. أما رسومه الكاريكاتورية عن أحداث العالم فتتلقى تعليقات من الصحف حول العالم كما لو كانت تصريحات وزير سيادي. إنه رجل بمقاسات عصور النهضة بحق. له جسد فولستاف وفن فست. ولقد وجدنا أنفسنا نحب هذا الرجل الذي يجمع بين اللماحية والدماء الحارة؛ وفوق كل شيء، وبعكس الكثيرين من مثقفي مصر، لم يكن يُنظِّر أو يتفلسف؛ إنما ببساطة ينزل بنا ليُطلعنا على تلك الجوانب من الحياة المصرية التي شعر بأنها تلقي الضوء على ما نريد أن نعرف. وقد كان محقًّا، تقريبًا في كل مرة».

وكانت «هي» من ضمن طلبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، الذين كان أساتذتهم والناس خارج الجامعة يطلقون عليهم لقب «الأجانب المحليون»؛ لكنها معه كانت تشعر بأنها في وطنها، وأنها تقريبًا صارت مصرية. بالنسبة إليها كانت جوازات السفر التي في حوزتها لا ترقى إلى مستوى تحديد الهوية. كان لديها جواز لبناني حصلت عليه من خلال أبيها؛ وبالزواج صار لها جواز سفر مصري. وقد رفضت سفارة لبنان فيما بعد تجديد جواز سفرها اللبناني، وطلبت منها أن تسافر إلى لبنان لتحصل على جواز جديد، ربما لأنها كانت من مواليد حيفا. وسألت نفسها: «لنفرض أنني لم يكن معي جواز مصري، كيف كنت سأتمكن من السفر إذن؟». كيف كانت ستدخل لبنان وليس معها جواز سفر آخر؟ لكنها لم تهتم. وحتى لتجديد جوازها المصري، لم يكن يجوز لها أن تحصل عليه من أقرب قسم شرطة كباقي المصريين؛ بل عليها أن تذهب إلى ميدان التحرير الشهير وتستخرجه من المجمَّع هناك. ميدان التحرير الذي كان ذات يوم المقر الرئيسي لثكنات الاحتلال الإنجليزي، ثم صار بعد ٢٠١١ رمزًا لـ«الربيع العربي» المختلَف عليه. الميدان نفسه ومجمعه الكبير الذي كانت تذهب إليه كل عام مع جدها لتجديد تصريح الإقامة لهما كاثنين من الأجانب. وكانت المفارقة أن هذا يتم أملًا في العودة إلى فلسطين ذات يوم؛ بينما اليهود الصهاينة لديهم

جوازات مزدوجة، أحدهما إسرائيلي والآخر أوروبي أو أمريكي، حيث يشكلون هناك جماعات ضغط في تلك البلاد. فكيف في المقابل يكون هناك أمل في بقاء القضية الفلسطينية على قيد الحياة، حين يُحرم الفلسطينيون من نفس الحق، حق الحصول على جواز سفر الأوطان التي هاجروا إليها قسرًا؟! أما «هناك» فيعرضون في وسائل إعلامهم مرارًا وتكرارًا مشاهد من فترة هتلر الشهيرة حيث كان يتم اضطهاد اليهود، وتفعل وسائل إعلام الغرب الشيء نفسه ليذكروا جماهيرهم بتلك الحقبة الداكنة، كما لو كانت تلك المذابح هي الوحيدة الفريدة، وإلى جانبها ليس هناك ما يستحق الذكر. لا أحد يسأل نفسه: وماذا عن مذابح نانجينج في الصين، وغيرها في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية؟! إن الصحافة والإعلام، في كل اللغات فيما يظهر، يملكها أو يهيمن عليها أناس ذوو اتجاهات وعقليات ومصالح ضيقة، في عالم يُفترض أنه قد صار قرية واحدة هائلة من خلال عملية العولمة، وأن أي شيء يحدث في ركن من تلك القرية يؤثر على كل الأنحاء الأخرى على الفور.

كانت قد قرأت مذكرات آن فرانك، وشعرت بقرابة وتوحد بين ما كتبته وبين حياتها «هي» وتجاربها الشخصية. كان عملًا مكتوبًا جيدًا، بصرف النظر عن اتهامات الفبركة. وفي المدارس التي التحقت بها، في مصر وخارجها، كان لها أصدقاء من اليهود، وكانت تميِّز ـ تقريبًا بالفطرة ـ بين الدين اليهودي وبين الصهيونية كحركة سياسية، بينما كانت جدتها توبخها على تلك الصداقات، و«هي» لا تدرك السبب. فقد كان أهلها لا يحدثونها أبدًا عن فلسطين أو أي موضوعات سياسية. كانوا مهاجرين مشغولين بأمور العيش. فكان تواصلها في تلك الفترة العصيبة من مراهقتها يتم فقط مع الكُتَّاب الموتى لا أقربائها الأحياء، المنهمكين في حيواتهم بما لا يتيح لهم ولها فرصة الانتباه لاحتياجاتها النفسية؛ باعتبار أن الحاجات الجسدية وحدها هي في شرعهم ما يستحق الالتفات.

حين احتفلت معه بنهاية سنوات مراهقتها أثار هذا ضحكه، وتعجَّب: ما الذي يجعلها بهذا المرح والصخب لهذه المناسبة! كان من عادتها دائمًا الاحتفال بمرور الزمن؛ حتى إن صديقة عمرها فريدة ـ التي عرفتها منذ الطفولة، حيث كانتا زميلتين في مدرسة «المير دي دييه» الفرنسية، وكان بيتها في جاردن سيتي يطل على المدرسة ـ كانت هي الأخرى تعلق ضاحكة أن صديقتها، حين تسمعها تتكلم، تحس أنها تتطلع إلى الشيخوخة بلهفة واشتياق! مثلًا تقول لها إنهما ستظلان صديقتين حتى تتخلع أسنانهما وتمشيا متكئتين على عكازين. إلا أنها فقدت قنوات الاتصال بفريدة خلال رحلاتها العديدة، حتى استعادتها في الجامعة الأمريكية بالقاهرة بعد عودتها من إنجلترا. وقبل رحيله «هو» بشهر، قابل شاعرها فريدة في الشارع بالصدفة، وسألها أن تكثر من زياراتها لهما. ومنذ ذلك الحين، صارت فريدة متاحة لصديقتها طوال الوقت. فمنذ وفاته صارتا تتقابلان مرة في الأسبوع. وصارت فريدة «بنكها الخصوصي» تسحب منه وتقترض كلما جعلتها مصلحة الضرائب في ضائقة مالية.

ومن خلال إحساسها الضبابي بالهوية، وجدت الحب؛ وجدته كما كان مذكورًا في الكتب التي

اعتادت قراءتها. وظلت تعتز بتلك الرابطة بينهما حتى بعد موته المأساوي، ربما بالقوة العاطفية نفسها التي ربطتهما عندما كانا معًا و«هو» على قيد الحياة. كانت تشعر بنعمة وميزة أنها عرفت ذلك الإنسان الرائع، الذي أثراها وساعدها على التطور والوعي بما حولها في هذه الدنيا. كان أكبر سنًّا وأكثر حكمة، وكان رجلًا صنع نفسه بنفسه، وعلى درجة كبيرة من الثقافة والمعرفة، على الرغم من أنه لم يكمل تعليمه الجامعي. وكانت العلاقة التي جمعتهما فوضوية بمعنى ما، لا تستند إلى خضوع واحد للآخر أو هيمنة طرف على طرف. كانت حقًّا متعة وامتيازًا في اعتقادها أنهما جلسا لوهلة جنبًا إلى جنب على قمة العالم، ويداهما متعشقتان الواحدة في حضن الأخرى، وكذلك قلباهما.

كان إصرار أخته هو ما أتاح لهما تلك النعمة، وما ظلت بسببه ممتنة لها حتى هذه اللحظة. فقد لفتت الأخت انتباههما إلى تلك الشقة التي كانت محجوزة لوزير الثقافة في ذلك الوقت، الدكتور ثروت عكاشة، والذي غيَّر رأيه وتراجع عن حجزها. كان وزير ثقافة حقيقيًّا، مهتمًّا بإنشاء أكاديمية كبرى للفنون، تضم، إلى جانب الكونسيرفاتوار حيث يدرس الطلبة العزف على الآلات الموسيقية، معهدًا للباليه يتعلم فيه التلاميذ ذلك النوع من الرقص، كما أنشأ فرقة الموسيقى العربية للحفاظ على التراث الشرقي. وكان زوجها قبل ذلك دائم الشكوى من أن الدولة لا تدرك مدى أهمية الإنفاق الضخم على الإنتاج المسرحي لمقابلة سطحية الأعمال التي ينتجها القطاع الخاص والذي لم يكن يهتم بالمستوى الراقي الذي يسمو بالوجدان، بل كل همه إرضاء غرائز العامة لتتحقق غايته الوحيدة وهي الربح السريع.

ومصداقًا لهذه الرؤية، حين اندلعت أحداث الربيع العربي، لم يجد الشباب أعمالًا غنائية تليق بالحدث إلا الأغاني الوطنية التي كتبها شاعرها ومن سبقوه.

وكان المشروع السكني الذي ضم هذه الشقة يبنيه الجيش في قطعة الأرض التي كان سابقًا يقوم عليها فندق شبرد القديم. وكان هذا المشروع عبارة عن عمارة عالية متينة الجدران التي يمنع سُمكها وصول صخب الشوارع المزدحمة في الأسفل إليهما. وكانت مساحتها تشغل كل امتداد شارع الألفي، المسَمَّى على اسم أحد كبار المماليك الذين حكموا مصر يومًا ما. وكان ذلك الاسم يثير خيالها، فتكاد ترى الخيول مركونة على الأرصفة بدلًا من السيارات المزمجرة، كلما زارت المكان! وكان الموقع قريبًا من قلبها. فبالقرب منه دار سينما صيفية ـ في الوقت نفسه مطعم ـ كانت ترتادها وهي طفلة بصحبة جديها. لكل هذا، كانت تشعر بامتنان حقيقي تجاه أخته، صاحبة اقتراح أن يشتريا تلك الشقة العالية على قمة ذلك البرج. وقد ساعدها تأجير هذه الشقة في تغطية مصاريفها بعد موته، وبعد أن بددت عن عمد كل ما ورثته من ثروة أبيها.

وكانت أخته على علم بهذا المشروع السكني، بحكم أنها متزوجة من أحد ضباط الجيش. وكان ذلك الضابط رجلًا ذكيًّا متحضرًا، لم يتسلل إليه الفساد، وكان يتقبل النقد بكل رقة وتهذيب بعد أن

توثقت معرفة بطلة هذه الحكاية به. كانت دائمًا ما تلاحظ أن الجيش يتمتع بامتيازات خاصة في شراء الشقق أو الأثاث بأسعار أقل، لكنه على كل حال لم يحظَ بتلك الامتيازات، وكان هو وزوجته كلاهما متحررين ومثقفين. وقد درسا معًا الإدارة والعلوم السياسية بالجامعة الأمريكية في القاهرة، بعد هزيمة ١٩٦٧ الموجعة.

لكن قبل أن يحدث كل هذا، كان الزوجان المنتشيان صاحبا الحكاية يسكنان شقة صغيرة من حجرة واحدة وصالة في حي الزمالك، في انتظار أن يكتمل بناء عشهما الجديد. وكانت تلك السنوات أحلى أيام عيشهما المشترك. وبعد ذلك بسنين أطول، بعد أن تقاعدت عن العمل، اختارت «هي» شقة صغيرة تبعد كثيرًا عن قلب القاهرة، لكي تستعيد وحيدة تلك الأيام المليئة بالسلام والأمان؛ تستعيدها وهي أرملة عجوز حزينة. تستدعي ذكريات أيامهما في الستينيات، حين كانا متقاربين إلى حد الالتصاق. وقد أخبرتها طبيبتها النفسية فيما بعد أنها لا تحتاج إلى عقاقير علاجية؛ كل ما في الأمر أنها مرت بظروف صعبة، وأنها ستستطيع في يوم ما التخلص من العلاج الدوائي. وكانت على حق! كانت امرأة رائعة، تتبنى منهجًا قائمًا على وجهة نظر المريض الذي تعالجه، وتذكرها في هذا النهج بكارل روجرز. لم تجفل من قراءات مريضتها الغزيرة التي دفعها إليها لغزان في حياتها: أمها وزوجها. آخرون تهيَّبوا الموقف، بعد قرارها قطع العلاقة بطبيبها النفسي القديم. أما هي ـ وأعني الطبيبة ـ فقد ساعدتها على الغوص في نفسها، إلى أعماق لم يكن آخرون ليجرأوا على استكشافها، وأن تقوم بهذا «الواجب المنزلي» بمعاونة دليل مرشد يبعث على الطمأنينة. وبعكس الخبير النفسي السابق ذي التوجه الفرويدي، كانت ملاحظاتها بناءة لا هدامة، وعاونتها على التفكير بصوت عالٍ. كانت عطوفًا ومستمعة جيدة، لكن كثيرًا ما تولتها الحيرة إزاء عملية الحداد الطويلة التي بدت بلا انتهاء!

تأجل العمل في البناية بعد اشتعال حرب ١٩٦٧ مع إسرائيل. صارت رؤيتها ضبابية للمدة التي عاشتها في هذا المكان أو ذاك، أو لما حدث أثناء عملية تطويرها لشخصيتها. ومنطقة وسط البلد القاهرية، وكذلك طفولتها، تمتزج في داخلها بذكريات مؤلمة. فقد رأت حريق القاهرة واستمعت إلى سارينة سيارات الشرطة وهي تندفع في الطرقات، وشاهدت الناس وهم يقفزون من الشرفات ظانين أن ذلك سوف ينجيهم من الجحيم. أما الآن ـ أي في الستينيات ـ وهي تتمشى مع شاعرها في تلك الطرقات، فإن العالم يبدو أكثر أمنًا، و«هو» يتندر بتلك الظاهرة العجيبة: كلما سارا معًا للنزهة، تزفهما عصبة من كلاب الشوارع، وأطلق عليها في هذا السياق لقب: «Sainte Monique des animaux» أو «القديسة مونيكا راعية الحيوانات».

كانت دائمًا متجردة متباعدة، وهذه الصلة العاطفية كانت مفاجئة. وقد أذهلت الجميع؛ أصيبت أسرتها بالحيرة تجاه اختيارها، وحاولت بكل الطرق ثنيها عنه، بما في ذلك ترحيلها إلى لبنان، حيث تعارفت مع شاب مسيحي من سنِّها من بين دوائر العائلة أو المعارف. لم يفلحوا قَطُّ في فهم

مدى احتياجها له: تلك الحاجة الملحة لإطفاء النار التي تشتعل في صميم تكوينها الهش، والتي يهدأ أوارها كلما كانت في صحبته؛ وهي نيران تسبب في تأجيجها ـ سواء عمدًا أو عن غير عمد ـ أفراد أسرتها أنفسهم.

معه، كان إحساسها بالعزلة ـ بطريقة ما ـ يختفي، كما لو كانت تلك النار لم تشتعل أصلًا، بل هي أمر من نسج خيالها. لقد علمها كيف تستمتع بالحياة، التي كانت قبله محنة موحشة. كان الأمر كما لو أن جنية طيبة ذات عصا سحرية لمست بعصاها دنياها فاعتدلت بعد أن كانت مقلوبة. لقد رآها جميلة، وهي التي كانت ترى نفسها فأرة بائسة تلقي بها بعيدًا أيدي كل من تولوا أمرها، حتى إن زوج جدتها كان يدللها، بهذا النداء غير المحبب: «يا فأرة»، قبل أن تخرج «هي» من مصيدتهم للعالم الواسع بعد أن التقت والدها. أما «هو» فقد فتح شهيتها لتناول أطعمة كانت تغص بها حين تأكلها بالأمر على مائدة جدتها غير الراضية عنها، التي دائمًا ما تشكو أن حفيدتها مصابة بالأنيميا. كانت حقًّا تبدو هزيلة، حتى إن أحد أقارب زوجها، وكانا يزوران ضيعتهم الريفية، أبدى تلك الملاحظة، ونصح زوجها لعلاج هذا الهزال، ألا تجلس «هي» إلى موائد عامرة بكل ما لذ وطاب لأن هذا يصدم شهيتها الضعيفة، بل أن يقدَّم لها الطعام الشهي بالتدريج، طبقًا إثر طبق. وهي الآن تتعجب: كيف استطاع ذلك القريب العجوز أن يُخمِّن أصل الداء؟ نعم، لقد كان على حق. فمائدة جدتها كانت حاشدة بكل أنواع اللذائذ، لإبهار ضيوفها الذين كانوا يعدونها طباخة لا تُبارَى. وهي بالتأكيد لم ترث جدتها في هذه الموهبة.

مع الأم والجدة وجدة الأم في منزل عمارة يعقوبيان عام ١٩٤٩

لقد كانت ترى نفسها من خلال عينيه «هو». فقد كان يراها ذات عقل مرهف، ولم تكن هي تعرف هذا عن نفسها. كان الوحيد الذي جرؤت أن تقرأ عاليًا أمامه، ما «شخبطته» بالفرنسية، حين كانت طفلة، ربما في العاشرة من عمرها، مسجلة مشاعر عابرة بدا أنها أثارت إعجابه. كانت أول مرة تمتلك شجاعة قراءتها لمخلوق. حدث هذا على مقهى الفيشاوي الأثري في حي الأزهر، بجوار جامع الحسين، حيث يحتشد السائحون لشراء حلية خان الخليلي للذكرى. وكان جرسون المقهى يرتدي جلبابًا، وسأل شاعرها إن كانت من يجالسها من هؤلاء السياح. وشعرت بالامتنان نحوه حين لم يعتبرها أجنبية، وعلى حين فجأة، نقشت شيئًا على المنديل الورقي المجاور للفنجان: علامة استفهام بالعربية على اليسار، وفي مواجهتها على اليمين علامة استفهام إنجليزية، فصنعا معًا قلبًا واحدًا حين قرَّبتهما الواحدة من الأخرى!

في نوبة غضب بعد وفاته، أتلفت كل ما كتبته، بما في ذلك خطابات هامة تبادلتها مع أمها ومع الأستاذ الإنجليزي الذي درست الفلسفة على يديه. حتى الصور العائلية دمرتها، كما لو كانت ترفض ترك أي ذكرى. لم تفهم أن القدر حين قضى باختفائه، فإنه بهذا أعاد إلى الحياة كل ماضيها الضبابي، بكل عذاباته، وأعادها «هي» يتيمة مرة أخرى، حين أفقدها إحساسها المكتسب حديثًا بالانتماء، الذي أمدها به حضوره، لتشعر من جديد بأنها تلك الطفلة السائحة الأبدية، التي تطالعها كل حين أوضاع جديدة لا تستطيع دائمًا فهمها.

كان يصر على رغبته في أن تنجب له طفلًا؛ وهو طلب أدهشه أنها تصر على رفضه. كانت دائمًا تقارعه بحجة أنه بالفعل لديه أبناء جُملاء، وكان رده باستمرار: «أريد طفلًا منكِ!»، وهي إرادة كانت لترحب بها لو كان العالم مكانًا أفضل. كانت تحب بصدق ابنيه من زواجه السابق، وأفسحت المجال لوجودهما في حياتها معه، وهو أمر ربما ندر أن تفعله زوجة أب. لكنها «هي» كانت تعلم بالتجربة معنى أن يكون المرء ابنًا لزوجين مطلقين، ولهذا تعاطفت مع ابنيه. وبعكس والديها هي، كانت تحرص على صحتهما الجسدية والنفسية معًا. فكان أحدهما أحيانًا يقول لها إنها تجيد النصح أكثر من الطبيب النفسي كلما احتاج إلى مساعدتها. وكانت هي لا تتوقف عن الإحساس بالذنب لأنها «أخذت منهما» والدهما، وهو أمر كان «هو» دائمًا ما يحاول طمأنتها أنها لم تفعله. كانت مشاعر الذنب هذه ترفض أن تبارحها، حتى بعد رحيله، حين كان ابناه يعبران عن حنانهما تجاهها، محتفلين بعيد ميلادها أو جالبين لها الهدايا في عيد الأم. ولأن ولده الأكبر لم يكن متزوجًا حين رحل «هو» عنها وعن ابنتهما الطفلة ـ بعكس شقيقته ـ فإنه قرر أن يقيم معهما لفترة. وكانت ابنتها كل صباح تحاول منعه من الذهاب إلى عمله وتسد بجسمها باب الخروج. كانت تريده أن يعمل بالمنزل كما كان يفعل والدها. أما «هي» فقد أدركت أنه ذات يوم قريب ستكون له أسرته الخاصة، ولهذا كان لا بد عليهم جميعًا عدم الإفراط في الرباط العاطفي. وبعد حين، قبلته وهمست له أن عليه العودة إلى بيت أمه، وشكرته على كل الحنان الذي قدمه. وكان هذا مهلكًا لوهلة، لكن

كان عليهما ألا يتشبثا.

أحيانًا كانت تسخر من استكشافات الفضاء الخارجي، بينما كان هناك الكثير مما يحتاج إلى العمل والعلاج هنا في فضائنا الداخلي، وفي تفاعلنا وتجاذبنا كأمم على هذه الأرض، حيث علينا أن نُحل التعاون محل التنافس، ويتحلى كلا الجنسين بروح الموضوعية والنزاهة والحياد في علاقته بالجنس الآخر. حتى علم وطب النفس إنما نما وتطوَّر من متابعة وعلاج أعراض أظهرها شباب الجنود في قتالهم مع «العدو» على جبهات القتال. هل كان الإنسان في مرحلته القَبَلية عرضة للإصابة بما نسميه الآن «انفصام الشخصية»؟ ربما كان هذا هو سبب الحنين الذي ظهر بقوة فيما كتبه جان جاك روسو عن الإنسان البدائي والطبيعة البكر. إن المرأة لم تحصل على حقوقها كنوع من التكرم أو فروسية الرجال؛ بل لإدارة عجلة الإنتاج بينما كان الذكور يخوضون حروبهم العالمية العبثية على امتداد أوروبا بأسرها. كانت «هي» تكره السياسة، إلا أنها لم تكن تعلم إلا القليل عن مدى تعشُّق السياسة وتشابكها الوثيق مع أحداث حياتها الشخصية، وهو أمر لم يكن هناك منه مفر، مهما رغبت في ذلك.

مع شاعرها وأمينة جاهين والجد رشيد خوري والموسيقار إبراهيم رجب في سبوع ابنتها سامية عام ١٩٨٠

كانت قد درست في التاريخ الإنجليزي إلغاء ظاهرة عمل الأطفال، إلا أن العالم أعادها من جديد، حتى في الدول النامية، مضافًا إليها تجنيد الأطفال ليحاربوا في أفريقيا. وأسلحة جديدة تُخترع الآن، وطائرات مُسَيَّرة تقاتل بالتحكم عن بُعد. كانت «هي» تثمن الطفولة وتُعلي قدرها إلى درجة أنها كانت ترفض تعريض أطفال من رحمها لهذا الجحيم، وهذه الفوضى في كوكب غير مسؤول: كوكبنا.

كل أنواع الفنون، المكتوبة أو المسموعة أو البصرية، هي مرفأ أكثر أمنًا لروح متعبة. وكان «هو» مرفأها، وهما هناك واقفان على قمة العالم يتأملان معًا مستقبلهما المشترك. وعلى الرغم من هذا، لم يُكتب لهما أن يعيشا معًا في تلك الشقة التي استمتعا بالعيش فيها فقط بخيالهما، مالئين به كل شبر فيها بالرياش والأثاث، حتى أدق التفاصيل، ومنتعشين بأكبر الآمال، في مستقبل شخصي مشترك، وفي مستقبل عظيم لمصر. ولكن بوفاة عبد الناصر، فإن حماسه «هو» أيضًا قد مات، فظلَّا كما هما يعيشان في شقتهما المستأجرة. وعلى أي حالة، كانت دائمًا تشعر بأمان أكثر في الشقق الصغيرة. وقد كان منزلهما يزدحم كحافلة في بعض المناسبات، مثل الاحتفال بليلة رأس السنة. وكان عليهما في النهاية الانتقال إلى شقة مؤجرة أكبر في حي قريب من الزمالك. وكان قد توقف عن الذهاب للعمل في مبنى الأهرام في موقعه الجديد، وصار يؤدي عمله في المنزل. وكان زواره عادة من المخرجين أو الموسيقيين أو الشعراء أو الصحفيين أو كُتَّاب السيناريو أو الممثلين.

كان هؤلاء يحتاجون إلى مساحة أوسع تستوعبهم جميعًا. وكانت غير معتادة على مقابلة كل هذا العدد من الناس في حياتها القديمة المنعزلة. ويبدو أنه «هو» كان يحس بالإهانة لأن إدارة الجريدة وضعته في حجرة مكتب يشاركه فيها آخرون. فقد كان يحتاج إلى مساحة خاصة به يستطيع فيها استقبال زواره، أو يتمكن من فترة التأمل الخاصة التي تسبق تنفيذه لرسمته الكاريكاتورية اليومية أو كتابة قصيدة، ولهذا قرر أن يعمل في البيت.

أما منزل أحلامهما، فقد أُغلق على تلك الأحلام لسنوات عديدة. كان «هو» يشعر باليأس والأسى بعد الهزيمة. ولأنه كان شخصية عامة، فإن بعض أطباء النفس شخصوا حالته من خلال قصائده المنشورة. لكن الأمر في الواقع أنه كانت له تقلباته المزاجية ككل الناس. وكانت «هي» تعتقد أن تلك التشخيصات الطبية لم تكن دقيقة. فالتعريف العلاجي الدقيق للصحة النفسية هو قدرة الفرد على ممارسة عمله، والتعامل الكفء مع الآخرين من أفراد الأسرة أو الدوائر الاجتماعية المحيطة به. فكيف يكون «هو» مريض النفس ويحتاج إلى العقاقير وهو يمارس عمله الإبداعي والذهني بامتياز، ويتعامل مع الناس بالجودة نفسها؟! لكم أثار هذا سخطها! فقد كان هذا داء القرن وصرعته. وكان «هو» لا يبدو عليه أي أعراض نمطية: كالخمول والانسحاب من واجباته اليومية الثقيلة. فقد كان له مربع يومي في «الأهرام» ينشر فيه كل صباح رسومه الكاريكاتورية. وكان يقول عنه على سبيل الدعابة أنه «أكل عيشه» وقوت يومه. كان يبدو أن الشعر هو فنه المفضل.

وفي أحد الأيام، حين كان يرسم مبنى الجامع الأزهر، سألته «هي»: أين يقع هذا المبنى؟ فاقترح عليها لأول مرة أن يصحبها إلى ذلك الحي الأثري ليتأملا معًا معالمه وتتعرف هي عليها. كانت كل معلوماتها عن القاهرة محصورة في حي وسط البلد، حيث سكنت خلال حياتها الأولى في ثلاثة بيوت كلها في ذلك الحي؛ اثنان عاشت فيهما مع جدتها وزوج جدتها، وواحد مع أمها وجدها، الذي عاش قبلها في بنسيون بعد طلاقه من جدتها مباشرةً. وكانت أيضًا تعرف جيدًا حي الزمالك حيث كان يقع نادي الجزيرة الذي كانت ترتاده مع جدتها، بينما أمها مشغولة في عملها.

ظلت شقة الحلم لسنوات مغلقة عليه. وكلما اقترحت عليه أن ينتقلا إليها، كان يرد عليها بحكاية عن أحد الأمراء أو الأثرياء، لا تتذكر بالضبط أيهما، وكيف انتقل إلى بيت في الحي ذاته، وبعد أن استورد لبيته الجديد الرخام من روما، وأنفق سنوات في تجهيز فيلَّته الجديدة، زاره الموت هناك بعد أسبوع واحد من إقامته فيها. أما الواقع فيحكي أنه «هو» لم يكن يحب التغيير، وكان دائم الشكوى من أنها، كأمه، مغرمة بنقل الأثاث في أنحاء البيت من غرفة إلى أخرى بما يفوق قدرته على الاحتمال. أما أخته، الأكثر واقعية وروحها عملية، فاقترحت عليهما تأجير شقة الحلم، وهي فكرة لم تكن قَطُّ لتخطر على بالهما. وكلما فكرت في بيع الشقة، كان هو يرفض، وبإصرار غاضب، كما لو كان ذلك ولاءً لحلمهما الأول الجميل، حين كانا يرسمان في خيالهما أثاث الشقة ويعمِّران أركانها بقطعه الوهمية على خريطة البيت. لم يكن عمليًّا كأخته، بل كائنًا يعيش في عالمه الأدبي الخاص الذي ملأ بمعالمه قلوب القراء وعقولهم من خلال قصائده. وكان شعره له من العمق والطزاجة ما لم تجد له مثيلًا في أي شيء قرأته قبل ذلك أو بعده. كان مكتوبًا بلغة حديثها اليومي مع أمها، أيام كانت تعيش معها في مصر في الطفولة، وكانت تشعر بالأمان، قبل وقوع زلزال لقائها بالأب.

كانت الأسرة قد خططت لزواجهما في يونية ١٩٦٧، واختارت تاريخًا بعيدًا على أمل أن يفترقا قبل حلول الميعاد، كما تمنت أخته وأمها، فيعود «هو» إلى زوجته الأولى وأبنائه. في ذلك العام، وقعت مجزرة حصدت آلاف الفلاحين، حين غزا الفيتناميون الجنوبيون بدعم أمريكي فيتنام الشمالية، ثم وقعت في مصر النكسة بعد حرب الأيام الستة مع إسرائيل. لم تشعر لصغر سنها بنكبة فلسطين التي عاشها جيل أبويها ولم يكونا يذكرانها قَطُّ أمامها. وفي ذلك الأوان (١٩٦٧) كانت «هي» قد أصبحت مصرية تقريبًا، على الرغم من أن حصولها على جواز سفر مصري لم يتم إلا بعد زواجهما بخمس سنوات، كما ينص القانون. وفي جو النكسة، ألغت الجامعة الأمريكية بالقاهرة ـ حيث أنهت دراستها ـ مراسم التخرج الاحتفالية؛ وكذلك قررا هما أن يتم زواجهما دون احتفال. وفي المقابل، اكتفيا بصورة فوتوغرافية لهما معًا، و«هي» ترتدي فستان زفافها الذي تمت خياطته قبل الحرب؛ وصورة أخرى لها وهي ترتدي ثياب التخرج من الجامعة: الروب الأسود والقبعة السوداء الشهيرة، وكان «هو» يعتز بتلك الصورة ويضعها في مكان بارز على أحد رفوف المكتبة

بحجرة مكتبه، كما لو كان فخورًا بتخرجها، بل أكثر فخرًا بذلك من أبويها، وربما منها هي! فسنوات الجامعة بالنسبة إليها كانت كئيبة. وكانت عادة تستمع بفتور إلى المحاضرات، ثم تُهرع للقائه، في الأوقات بين تلك المحاضرات، على مقهى قريب من الجامعة اسمه «نايت آند داي».

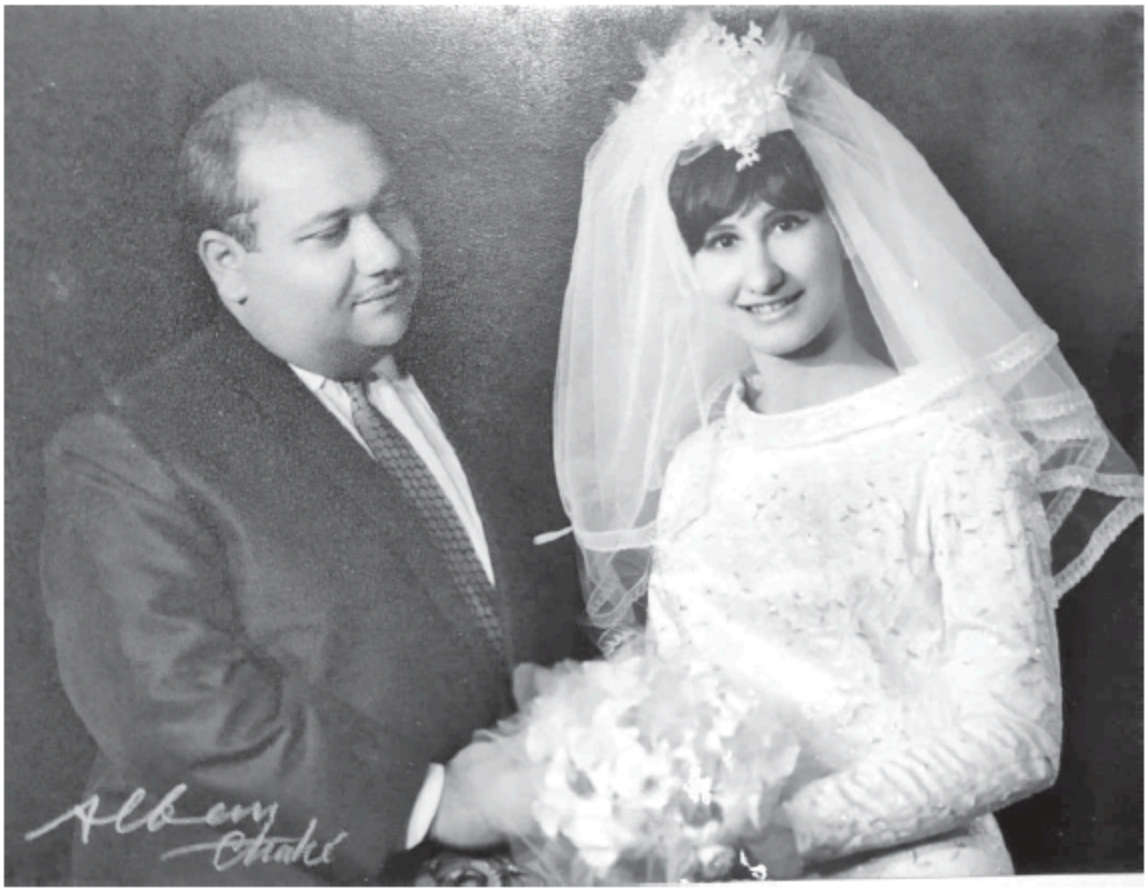

صورة الزواج عام ١٩٦٧

الآن تشعر «هي» ببعض العزاء، حين تحاور قلبها قائلة إنه ربما قد رحل في توقيت مناسب، تاركًا عالمًا صار يتنبأ له بيقين متصاعد أنه سائر في طريق الكارثة. كان قد أصبح شديد التشاؤم إزاء المستقبل.. ففي ذلك الوقت، كانت فلسطين تنزف وحدها، بينما تُعقد مع إسرائيل معاهدات السلام، بأمل ساذج في شرق أوسط جديد بلا حروب. فبعد عقد تلك المعاهدات، غزت إسرائيل لبنان، البلد الذي أراد لها والدها أن تعيش وتدرس وتتزوج فيه. وأكثر من ذلك، فقد صار العالم العربي كله ينزف بعد أحداث ١١ سبتمبر في نيويورك، وما تلاها من غزو أمريكي للعراق أفسح المجال لنشوء ميليشيات متقاتلة تخدم الاستراتيجية الجديدة للغرب في منطقة الشرق الأوسط بأسرها. فمع مطلع القرن الحادي والعشرين، كانت أمريكا قد خططت لغزو سبعة أوطان عربية، بادئة بالعراق، وبموافقة معظم الحكومات العربية، كما كان الحال قُبيل اتفاقية سايكس-بيكو التي

أخضعت الإقليم للانتداب البريطاني-الفرنسي. فالدول العربية الوليدة كلها سعت في النهاية لتحقيق مصالحها الضيقة، في عصر التكتلات السياسية، حيث سعت كل منطقة جغرافية للتوحد على الرغم من تعدد اللغات والتباين التاريخي؛ على سبيل المثال، الاتحاد الأوروبي، واتحادا سيلاك (CELAC) وألبا (ALBA) بين بلدان أمريكا اللاتينية، ناهيكم عن الولايات المتحدة؛ بينما فشل العرب في تحقيق الوحدة فيما بينهم للتغلب على الفقر أو الغزو، على الرغم من وحدة العقيدة الدينية واللغة التي يتحدثونها! فالتحدث باللغة نفسها لم يعنِ في حالتهم أي قدرة على التفاهم والتعاون. فالعالم العربي مقسَّم بين مَلَكيات حديثة التكوين أنشأها الاستعمار البريطاني، وجمهوريات نشأت حديثًا هي الأخرى في البلاد العربية ذات التاريخ الحضاري القديم. ولسوء الحظ، فقد حكم الرؤساء الجدد بلدانهم بنفس طريقة جيرانهم الملوك الجدد؛ فلم يلبوا احتياجات شعوبهم لحياة أفضل، لا اقتصاديًّا ولا اجتماعيًّا.

في القرن العشرين، كان «العدو» هو الشيوعية. فكانت هوليوود تصوِّر، بالألوان الفاقعة، الحياة خلف «الستار الحديدي». وكان الاستقطاب هو السائد بين الأمم والحكومات؛ بل حتى بين الأجيال، وداخل العائلات. أما في القرن الحادي والعشرين، فقد صنع الغرب عدوًّا جديدًا، تصنيعًا ينطوي على تشويه؛ وكان ذلك «العدو» هو الإسلام، في نسخة مموهة، وبمعاونة من حلفاء الغرب في دول الخليج العربي.

لم يحضر «هو» زمن سقوط الاتحاد السوفيتي، وصعود أمريكا كقوة عظمى وحيدة حاكمة، خنقت العالم بتقديم صور وهمية شائهة سمتها «الأعداء» لتروج صناعة السلاح عندها وتزدهر. وخلفت تلك القوة اقتصادًا مُعَوْلمًا الهدف منه الهيمنة على البِنَى والأنظمة الاجتماعية والاقتصادية في العالم من وراء قناع سمَّته «نشر الديمقراطية» و«حماية حقوق الإنسان»؛ حتى إن البعض صاروا ينظرون إلى مفهوم حقوق الإنسان نفسه كعدو للاستقرار!

كان لدى زوجها صديق أفروأمريكي، وقد أهداه ذلك الصديق مختارات ضخمة مجموعة في كتاب يحمل عنوان «الشعر الأفريقي في ألف عام». وكان هذا الصاحب، هو نفسه، شاعرًا، وكان يتمنى لو غادر أمريكا، لكنه لم يستطع، لتعوده هناك على مستوى معيشة لن يجده في أي مكان آخر. أما الآن، فالأفروأمريكيون يتم قتلهم في قارتهم الجديدة التي من المفترض أنها حامية حقوق الإنسان. وقد ذكرها هذا بأيام كان العبيد السود يعلقون على الأشجار مشنوقين في نفس هذا البلد المُسَمَّى «أرض الحرية». وفي الماضي كنا نسمع عن «مخيمات اللاجئين»، عند الإشارة للفلسطينيين وحدهم؛ أما الآن، فقد صار هذا الوضع المؤلم ينطبق على العرب كلهم تقريبًا. فهل جلبنا هذا على أنفسنا؟ هل تسلل أعداؤنا من خلال نقاط ضعفنا؛ من خلال جهلنا، وافتقارنا إلى التخطيط الاستراتيجي في مواجهة عدو ذكي طوَّر كل الأدوات التي يحتاج إليها للحفاظ على ما يطلق عليه «مصالحه القومية»؟

كانت دائمًا تعتقد ـ بسذاجة ـ أن الذكاء يرتبط بالطيبة والخير؛ بالتقدم والإنجاز. لماذا استطاعت بعض بلدان أمريكا اللاتينية تطوير مفاهيم محلية للعقيدة الاشتراكية التعاونية، بينما عندنا تحول كثير من الاشتراكيين إلى الإسلام السياسي، قافزين من نقيض إلى نقيض؟! لماذا انشطروا إلى مئات الأحزاب الصغيرة، بينما كلهم كانت لديهم العقيدة السياسية نفسها؟ فمهما كان الغرب مسؤولًا عن الحيلولة المتعمدة بين العرب وبين النهضة، فإنها «هي» تلوم في ذلك النُّخب العربية والزعماء. ربما كانت قاسية في بعض أحكامها، وبعض تصوراتها عن نفسها وعن عائلتها وهذه المنطقة من العالم كلها؛ فقد تربت في طفولتها المبكرة في جو الأديرة، والانضباط الخشن المتقشف لراهبات الدير. وربما كانت رهبتها للكتابة ناشئة عن طلب الكمال؛ ومن استبداد ذاتها النقَّادة بأناها المبدعة أثناء عملية الكتابة الأولى.

في أحد الأيام، قرأت على ابنتها حكاية كتبتها للأطفال. واستقبلتها الابنة بإعجاب حار، إلى حد أنها قارنتها بكتابات الفرنسي أنطوان دو سانت اكزوبيري. إلا أنه بدلًا عن التحفيز، فقد سدت هذه المجاملة عليها كل منافذ الإبداع، فلم تكمل الحكاية. كانت ترفض أن تشبه أحدًا؛ فقط تكون «هي» نفسها، ذاتها الفريدة المتفردة، التي تصنعها كلمات متقاطعة لم تقُم بعدُ بحلها، في متاهة لم تتوصل بعد لكيفية الخروج منها. وعلى الرغم من عشقها للغة الفرنسية، فإنها تضمر لها حقدًا. فعندما أُجبرت على العيش في السودان مع والدها، لم تجد مدارس فرنسية هناك لخضوع البلد للاحتلال البريطاني. فكانت مضطرة إلى اللجوء للمركز الثقافي الفرنسي في الخرطوم، بحثًا عن روايات بالفرنسية، مثل تائه ظمآن في صحراء يبحث عن قطرة ماء. وربما في أعماق حقدها هذا تكمن ذكرى ما فعله الفرنسيون من إبادة للغة العربية في الجزائر. إضافة إلى هذا، ألم تكن شركة فرنسية هي التي بنت، بموافقة حكومتها، مفاعل ديمونة الإسرائيلي؟ كان في قلبها حقد لم ينتبه له عقلها. وحين انتبهت، توقفت عن إكمال الحكاية، على الرغم من أنها مكتوبة بالعربية! أما «هي» فهي ليست فلسطينية، ولا مصرية، ولا لبنانية، ولا إيطالية، ولا فرنسية، ولا بريطانية. هي فقط «متعاطفة» مع القضية الفلسطينية كما تعاطفت معها راشيل كوري، فلم تحمها جنسيتها الأمريكية من الموت موطوءة بدبابة إسرائيلية داستها، حين حاولت راشيل الحيلولة بين الدبابة وبين هدم بيوت الفلسطينيين. وإذا لم يكن المسجد الأقصى موجودًا في القدس، أكانت الجمهورية الإسلامية في إيران ستجابه إسرائيل بالسياسات نفسها؟ وإذا لم يكن هناك في السماء رب يحكم بيننا، فهل هذا مبرر كافٍ لجنس البشر لإضرام الجحيم في الأرض؟ كانت «هي» هجينًا من نوع ما، وقد أحبها شاعرها كما هي. يا له من إحساس جميل مريح؛ يكاد أن يكون في ذاته إنجازًا: أن يكون مسموحًا لك أن تكون أنت أنت؛ أن تكون معه هي هي، لا سائحة أجنبية، كما تصورها العالم حولها!

وزار الشاعر الروسي يفتوشنكو القاهرة في الستينيات. كان طويلًا جدًّا، ربما طاولت قامته قامة أبيها، وذلك وحده أفقدها التعاطف مع مغامرات ذلك الشاعر حين حكاها لها زوجها. كان يفتوشنكو

هذا يبلغ من اللطف مع النساء أن أهدى راقصة شرقية مصرية هدية ثمينة بدلًا من المال مقابل ما قدمته له من خدمات. لم تكن «هي» تدرك بعقلها الواعي أنه يذكرها بأبيها. وعلى أي حال، لم يكن أبوها مثقفًا، أو له حساسية شاعر. كان شخصًا اغتنى فجأة حين ورث شخصًا آخر يمت له بِصلة قُربَى بعيدة، أوصى له بهذا الميراث امتنانًا لجدها الذي ربَّاه حين كانوا يعيشون في فلسطين. كان ذلك الشخص بلا ذرية ترثه، فوهب ثروته للأشد نحسًا في سلالة ذلك الجد. وتتساءل هي: هل يوجد الآن من يكافئ أحدًا من فرط الامتنان؟ يا له من شعور نبيل استطاع أن يصمد فيظل موجودًا تحت كاسحات الجحيم التي طحنت ولا تزال بني آدم!

الآن، بعد أن بلغت من العمر ما يمنعها من قيادة السيارات، حكى لها سائق تاكسي حكاية عن زبونة أصيبت بداء لا شفاء منه، وكيف كانت متكدرة حانقة لأن كل ما تمتلكه من ثروة لن يجدي شيئًا، بل سوف يرثها أبناؤها في النهاية. كانت تكاد تحسد أبناءها الذين سيعيشون بعدها ليتمتعوا دونها بالثروة! لقد صارت «هي» تلاحظ فارقًا جوهريًّا بين فئة البسطاء الذين كانوا يتيهون فخرًا في الستينيات بأبنائهم الذين تسلقوا السلم الاجتماعي وارتقوا أيام جمال عبد الناصر؛ بينما، في الناحية الأخرى، ظل أبناء الطبقة المتوسطة ينطوون على نزعة غريزية للتنافس مع أبنائهم، أو يريدونهم نسخًا طبق الأصل من ذواتهم. حتى أكثرهم طيبة ونبلًا لاحظت ذلك فيهم. وقد حكى لها شاعرها، وهما يتمايلان في حلبة الرقص، نادرة وقعت لوالده المستشار المرموق، أثناء مقابلته لشخصية حكومية سامية، حين علَّق ذلك المسؤول الكبير وهو يصافحه: «آه. أنت إذن والد الشاعر الذي كتب النشيد القومي للبلاد؟». لقد اغتاظ والده بعض الشيء، على الرغم من افتخاره بولده، لأن ذلك الولد الذي بدا له في الماضي خارجًا عن الطريق القويم، استطاع على الرغم من كل شيء أن ينجح في مسار لم يرسمه هو له. آه ما أشد الاختلاف بين ذلك القريب البعيد لوالدها، وبين تلك المرأة التي بخل قلبها أن يتمتع أبناؤها، لحمها ودمها، بالمال الذي ستتركه خلفها حين ترحل. إن العالم كله يبدو لها وكأنه يقترف جريمة الانتحار الأخلاقي.

وأين هو ذلك الفارق بين من نسميهم أممًا متقدمة ومن ندعوهم بلادًا متخلفة؟ إن كلتا الفئتين تستهلكان ذاتهما في كل ما هو مادي على حساب العقل، فيفقدان بذلك ما يشكِّل الفارق بين الإنسان والدابة. بل إن الحيوان يهاجم فقط عندما يكون جائعًا، لا مدفوعًا بـ«الفَجَع» أو بجنون القوة. وبعض الفلاسفة يدخلون في جدل حول ما إذا كان الإنسان خيِّرًا بطبعه، أم، بالعكس، شريرًا بالفطرة. فيا له من مأزق جدلي لا طائل من ورائه. ذلك أن المجتمع يدجِّن الإنسان، الذي يحمل في فطرته بذورًا من هذا وذاك: من الخير ومن الشر معًا. إن الثقافة البشرية تستطيع أن تحفِّز فينا شراسة الغاب، أو، في المقابل، تلهمنا كل ما هو مقدس وسماوي. فهذا وذاك كلاهما يتوقَّف على طبيعة عملية «التدجين» التي يمارسها علينا المجتمع. فمثلًا، كيف يفلح مروضو السيرك في تحويل الوحوش لكائنات مطواعة؟! إلا أن الصراع والبلبلة يخدمان أغراض النخبة الحاكمة التي

تهيمن على معظم وسائل الإعلام وكل الثروات في العالم. وعلى هذا، فإن العلماء هم أكثر اهتمامًا برعاية الحيوان من الالتفات للإنسان، الذي تركوه نهب الصراعات السياسية والاقتصادية التي اقترفتها القوى الكبرى في الأرض، خلال القرن الماضي كله وفي الحاضر. على سبيل المثال، إنقاذًا لقرد ضل وشرد عن بيئته الطبيعية، أعاد بعض هؤلاء العلماء تعليم القرد كيف يتسلق الأشجار، بعد أن كان قد فقد هذه المهارة الطبيعية. فماذا عن أولئك الصغار من بني البشر الذين أجبروا على ترك مواطن نشأتهم لكي يكسبوا من المال ما يتيح لهم تكوين أسرة؟ فإن كبار رجال الأعمال لا يعبأون بنقل المنشآت الصناعية من مكان إلى مكان، فتنشأ عن ذلك ظاهرة الهجرة. تُرى ماذا فقد هؤلاء النشء، وماذا استوردوا من أفكار أجنبية؟ لقد بدَّل دولار النفط مِصر التي عرفتْها «هي». حتى العادات التي توارثها الناس منذ أيام المصريين القدماء، استُبدلت الآن بعادات سعودية. فمن يملك المال، يملك أيضًا القوة والتأثير. وما زال الدولار هو عملة الاحتياطي العالمي. ولذلك فعلى الجميع اتباع القيم الأمريكية، وارتداء الجينز، وتناول الوجبات السريعة، والامتثال للسياسات التي تخدم مصالح أمريكا. كم تعجبت حين أمكن لها، بفضل الأقمار الصناعية، أن تشاهد برامج تلفزيونية من كل أنحاء العالم. وخضعت النساء لعمليات تجميل يتحولن بعدها إلى عرائس باربي. ولبست الآسيويات الجينز وصبغن شعورهن ليصرن شقراوات، وتطلعت فتيات الصين لأن يبدون جميلات مثل إيفانكا ترامب! هذا التقليد القردي؛ هذا التماثل النمطي، هدم مفهوم الجمال القديم من أساسه، الذي كان يقوم على التنوع والاختلاف، والذي هو نسق الوجود. حتى الأفلام صار أقصى طموحها أن تكون نسخًا باهتة من أفلام الحركة صناعة هوليوود، برجالها المتباهين بذكورتهم، ونسائها المتفاخرات بأنوثتهن. لقد ضاعت أفلام إيطاليا وفرنسا، التي ازدهرت في منتصف القرن الماضي، وفقدت هويتها. وادعى الغرب مساندة الديمقراطية، بينما هو يدعم النظم الاستبدادية ما دامت تخدم أغراضه، وقامت بـ«تزغيط» شعوبها القيم الأمريكية في هيئة أفلام جماهيرية مملة مهمتها أن تمحو تفرُّد ثقافات العالم الأخرى.

أما بالنسبة إليها، فقد عاشت الكتابة حلمًا بعيدًا، يكاد يكون محالًا أن تطاله. فالحياة بالغة الحدة وشديدة الفوضى. فكيف لها أن تحظى بلحظات من السلام الداخلي تتمكن خلالها من أن تتوقف لكي تتأمل؛ «حجرة خاصة للواحد منا»، كما وصفتها فيرجينيا وولف، ليس بالمعنى المادي فحسب، بل «حجرة روحانية» أيضًا. هذا النشاز المتنافر؛ تلك الأمواج المتلاطمة من عواطف لا معنى لها، كيف يمكن أن تترجمها؛ في أي لغة وفي أي نوع أدبي؟ تذكرت بحنان فيرجينيا وولف كلما جلست «هي» في شرفتها الصغيرة مطلة على العشب الأخضر حول بيت تقاعدها، مرفئها؛ كما لو أن فيرجينيا كانت شريكة غرفتها ذات يوم. كانت معجبة بأسلوبها، وتعتقد أن أهميتها ترجع إلى أنها كانت تكتب في مفترق تاريخي مرت به الإنسانية، ولتصويرها المرهف للعلاقات البشرية، حين كان الناس يحيون يومًا بيوم بُعَيْد الحرب العالمية الأولى.

وكان حدس شاعرها الفطري يمنحها مرفأ أكثر أمنًا. وكانت «هي» في بعض الأوقات عروس شِعره الملهمة. كان يريد كتابة مسرحية عن جارية من جواري تاريخ الشرق يعشقها سيدها وترفض هي أن تبادله الحب مضطرة وهي في قيد العبودية. وحين أعتقها اعترفت له بأنها تعشقه. كانت الحكاية مكتملة في عقله، لكنه رحل قبل أن يضعها على الورق. كما أبدع شخصية نسائية مستلهمة من شخصيتها هي، امرأة قادمة من مكان بعيد لم يستطع تحديده؛ ربما جاءت من السويد، أو ربما هبطت من كوكب آخر. كانت تعبر عن مفهوم في ذهنه لم يستطع منتجو المسلسل التلفزيوني الذي أعطى بطولته لهذه الشخصية أن يستوعبوه، فتحولت الشخصية إلى عفريتة من الجن تتجسد لرجل متزوج من أهل الأرض، وتلعب العديد من الملاعيب والحيل لتجعله يقع في حبها، من خلال تنكرها في هيئة شخصيات نسائية كثيرة. وفشل المسلسل فشلًا ذريعًا. وتتذكر «هي» الآن كيف كان مخرج العمل متضخم الذات ومفرط الحساسية، حين عبَّرت عن إعجابها بقصيدة كتبها شاعرها على لسان هذه الشخصية تبث بها لواعج حبها لذلك الرجل الأرضي الذي تعشقه، فهنأت زوجها على جمال القصيدة في حضرة ذلك المخرج، الذي هاج وماج واحتج على ما اعتبره تدخلًا في عمله من جانبها، بما أنه ـ طبقًا لاعتقاده ـ الوحيد المؤهل لتقييم النص. وبلغ به الغضب أن ألغى وجود تلك القصيدة فيما بعد في المونتاج. كل هذا لأنها فقط عبَّرت عن إعجابها بها. إن الرجال في هذا المجتمع الشرقي ينظرون إلى «العشيقة» بعطف، ويدللونها بلقب «الجو»؛ أما الزوجة المحبة فهي دومًا في شرعهم كائن متطفل، وجوده يُفسد الأجواء ويمتص أكسجين البهجة. وفي سنوات تلمذتها بمعهد الفنون المسرحية، أيام كانت الأفلام لم تزل «أبيض وأسود»، كتب «هو» مسلسل فوازير في ثلاثين ليلة رمضانية للتلفزيون على أن يكون من إنتاجه، واقترض لذلك الغرض بعض المال من وزارة الثقافة، أو هيئة أخرى تشبهها لا تتذكرها بالتحديد. ونظرًا إلى ثقافة النجم المهيمنة، واجه هو معضلة أن يوفر مالًا لا يملكه يدفعه للنجمة التي ستلعب بطولة العمل. وعليه فقد فكر في إسناد تلك البطولة إلى زوجته الشابة؛ وبالفعل خاضا معًا أكثر تجارب عملهما المشتركة سحرًا وفتنة، للمرة الأولى والأخيرة. فقد خلق لها شخصية شهرزاد، تحكي بالرقص والغناء كل ليلة لشهريارها حدوتة من حواديت الأطفال الشهيرة، وعلى المشاهد ـ هو وشهريار ـ أن يخمن كل ليلة ما الحدوتة فيحل اللغز أو الفزورة. وكما احتار شهريار كل ليلة إزاء ذلك اللغز، احتار فيها زوجها. فبما أنها شابة وجميلة، كان عليه هو أن يغار عليها. إلا أن الأمر في الواقع كان العكس. وإزاء تلك الغيرة، قال لها إنها في نوباتها تشبه في عنفها أهل صقلية الدمويين منبع عصابات المافيا. فقد كان دائمًا محاطًا بنساء جميلات يفقنها خبرة وحنكة؛ وكان هذا يذكرها بأبيها الذي كان يهملها أثناء مغامراته النسائية. كل غضبها المتراكم المكتوم نفَّست عنه في حياتها الزوجية، لكنه «هو» لم يهتم. فمثلًا، انتابته نوبة ضحك حين اشتعلت «هي» غضبًا لأن صحفية أمريكية أهدته مفرش سرير في إحدى المناسبات.

وحتى إذا حشدت كل شجاعتها لتكتب، هل سيفهمها الناس؟ «اعرف نفسك»، هكذا قال الإغريق. ففي تلك الحالة فقط، يمكنها الادعاء أن هناك شيئًا مهمًّا ستقوله، بوضوح وبفصاحة، تصوِّر خلاله بطلًا ينوء بجروح باطنية، فتصيد القلوب وتسبي العقول، كما فعل من قبل إدمون روستان في رائعته «سيرانو دي برجراك». لم يكن روستان كاتبًا يتمتع بغزارة شيكسبير. فعلى قدر ما تتذكر، لم يكتب روستان سوى مسرحيتين، لكن إحداهما عاشت إلى الأبد، وألهمت «سيرانو» كُتَّاب السينما عبر السنين بعدة تنويعات سينمائية مستقاة من ذلك العمل، وكلها أثارت إعجابها. وحين طلبوا منها إجراء جراحة تجميل لأنفها الطويل لتلعب بطولة فيلم سينمائي، سألت زوجها أن يكون حاضرًا في غرفة العمليات ليتأكد أن الجراح لن يغيِّر ملامح وجهها. كأنما كانت تحتج على تغيير شخصيتها. كانت عملية بسيطة، لكنها تركت ندبة في عقلها لم تُشفَ منها. وبعد كل هذا العذاب، لم تحظَ بدور البطولة. فلعدم استلطاف شديد تجاه المخرج، لعبت الدور ممثلة شهيرة بناء على رغبتها «هي» واستحسانها للأمر. وكان الفيلم من إنتاجهما هي وزوجها بالاشتراك مع منتج ثالث. وظل يُعرض في دور السينما لفترة تفوق أي فيلم آخر في تاريخ السينما المصرية. وأصر زوجها أن تشارك «هي» بدور صغير في الفيلم مع مجموعة من زملائها في معهد الفنون المسرحية. وكانت تجربة غير سارة. لم تحتمل المخرج؛ كانا ينتميان إلى عالمين مختلفين، وخرجت من التجربة بقناعة مفادها أن تحقيق الذات في الوسط الفني يعتمد على الآخر اعتمادًا مفرطًا. فقد بدا لها أنها لا تنتمي إلى عالم أفلام الترفيه والتسلية.

وظل العاشقان على دربهما المجبول من حرير وشوك، يستمدان الراحة من وجودهما معًا، مشتبكي اليدين على قمة العالم، يرفرفان نحو عوالم مجهولة في صحبة الطيور المهاجرة، بلا متاع أو مرافق سوى كيوبيد وحده بسهامه العاشقة الراشقة. أما العالم وأوجاعه، فلم تكن تملك لعلاجها إجابات مستمدة من نظريات السياسة وعلم الاقتصاد، المدموغة بعلامات مسجلة من هنا أو من هناك. كانت تحس الأدواء لكنها لم تتوصل إزاءها لدواء.

إن ممثلي الطبقة العاملة في الأمم الرائدة أصدروا قوانين هي في صالح الأثرياء. وكان من تبنَّى قانون التعليم الجامعي بالمصاريف في بريطانيا هو توني بلير رئيس الوزراء العُمَّالي. كان المرء ليتوقع صدور هذا القانون في ظل حكومة المحافظين. وطلاب الجامعات اليوم هناك يظلون لسنوات يدفعون للبنوك أقساط ما اقترضوه منها ليتخرجوا، في وسط أزمة البطالة والركود الاقتصادي. إن المستقبل مظلم في وجه الأجيال الطالعة. والحاضر مليء بالفساد، وبقوانين تقيِّد تلك الحريات التي طالما تباهى الغرب بها. ما الحرية؟ إنها مجموعة قواعد يستظل بها الجميع وينتفعون بها دون الانحياز لأحد منهم على حساب الآخرين. إن الروح النفعية العملية والمعايير المزدوجة أنتجتا معًا شخصيات فصامية منقسمة في مناخ من الفوضى والاضطراب. وقد فاقمت وسائل الإعلام الجهل المجتمعي. والمدد المعلوماتي المشاع لم يكن أكثر من وهم واحتيال. والقيم

الغربية تعولمت، وأدَّى ذلك النجاح إلى شعور الغرب بمزيد من التفوق يكاد يطاول جنون العظمة.

يا للعالم من مكان كئيب وموحش من دون التعدد والتنوع. هل علينا جميعًا أن نكون أمريكان، نعيش تحت رحمة الدولار؟! آه كم شوَّه سادة أمريكا من البيض الأنجلوساكسون البروتستانت، كم شوَّهوا اللغة الإنجليزية ومسخوها. ولكم كرهت «هي» لكنتهم في نطقها إلى حد أنها أحيانًا كانت تشاهد أفلامهم الهوليوودية القديمة مدبلجة إلى الإيطالية! وحكوماتهم ظلت تدعم وتساعد أقسى النظم الحاكمة في الشرق الأوسط: إسرائيل والسعودية، اللتين يبدو أنهما شكَّلتا حلفًا ثنائيًّا من تحت الطاولة، هدفه مص دماء الشعوب، كالمسوخ مصاصي الدماء في أفلام هوليوود. هم لم يصدِّروا الديمقراطية وحقوق الإنسان، وإنما اختاروا أسوأ فترة في تاريخ أوروبا ليقلدوها حاليًّا، هنا في العالم العربي، فيقومون بتصنيع حروب مذهبية في بلاد طالما عاشت الأديان فيها جنبًا إلى جنب في سلام ووئام. مثال تلك الحروب استمر مئات الأعوام في القارة العجوز، ودفع البروتستانت إلى الهجرة لقارة أمريكا. وقد درس مستشرقوهم دين الإسلام، عملًا بالمبدأ القديم: «اعرف عدوك»، وبشيطنة غاصوا لأعماق التاريخ المبكر للمسلمين، وقت وفاة الرسول، والصراع الذي دار حول من يخلفه. وقد عاونهم أحلافهم في منطقة الخليج لإحياء النزاع القديم بين السنة والشيعة في الشرق الأدنى وأفريقيا؛ وذلك من خلال إصدار الكتب وتقديم البرامج التلفزيونية، واستغلال المساجد والعمل الخيري، بهدف تنحية الاهتمام العام بعيدًا عن مشكلة فلسطين، لإضعاف القضية والحفاظ على تفتيت البلدان العربية المجاورة لها، ونشر الفوضى والكراهية بين العرب وبين الفُرس، الذين احتضنت ثورتهم (١٩٧٩) القضية الفلسطينية، بعكس ما يفعله الآن كثير من حكوماتنا العربية، وافتتحت أول سفارة لفلسطين في طهران بدلًا من سفارة إسرائيل التي أغلقتها الثورة، وصارت منذ ذلك الوقت تمثل تهديدًا لإسرائيل، الابنة المدللة للغرب الذي طالما ذكَّر الإعلام شعوبه بالفظائع والأهوال التي قاساها اليهود على يد النازيين، ليظل إحساس أوروبا بالذنب حيًّا لا يهدأ ولا ينام، فتغمض العين عن الفظائع والأهوال التي يقاسيها الفلسطينيون على أيدي الصهاينة. إضافة إلى هذا، فإنه لمِمَّا يثير السخرية والعجب أن يكون إنشاء دولة دينية لليهود في فلسطين، ونفي غير اليهود منها، قد تم، برضا بل وبمساعدة الغرب، تقريبًا في نفس توقيت فصل الدولة عن الدين تمامًا في أوروبا منذ بداية القرن العشرين، في خطوة حاسمة نحو ما يُسمَّى الآن بـ«العالم الحديث المتقدم»، فكأن الشرق الأوسط عليه في المقابل ـ ليتم ذلك ـ أن يُلقَى به من جديد إلى العصور الوسطى! فالآن يبدو أن اتفاقية سايكس بيكو، بعد مرور مائة عام عليها، لم تعد ملائمة، بفلسفتها التي اعتمدت على إذكاء الروح القومية بين العرب، وهي نزعة كانت قد بدأت تظهر في السنوات الأخيرة للحكم العثماني، لكن المخططين الاستراتيجيين في الغرب الآن لا يرونها تخدم مصالحه.

«الأقوى دائمًا هو الأحكم»؛ القوة دائمًا على حق. قالها لافونتين، وهو من شعراء فرنسا الأثيرين لديها. وفي المقابل، لا تبلغ معرفتها بالأدب العربي القدر الذي كانت تأمله؛ حتى الأغاني

التي عاشت في وجدانها منذ الطفولة هي خليط من أصداء جيلبير بيكو، داليدا، دومينيكو مودونيو، فيروز، عبد الحليم حافظ وإلفيس بريسلي. إلا أنه كان هناك في البرتغال نوع من الغناء يُسمَّى «فادو»؛ هو عبارة عن أصوات آلات ومغنين مترعة بالحنين: حنين زوجات وأمهات أو بنات ينتظرن عودة بحارٍ حبيب لهن من أسفار البحر. لكنها لم تكن تدرك في عقلها الواعي مدى حنينها لأب غائب يكاد لا يأتي على ذكره أحد من الكبار. ولم تسأل هي عنه أحدًا منهم. كانت تحتاج إلى الاتزان والاتساق في حياتها؛ فقد كانت دائمًا محمومة وممزقة، كقطع غير مكتملة للعبة طفل، عليه تركيبها جنبًا إلى جنب؛ طفل في حاجة ليد فنان ليجعل من لُغز أشلاء الصورة المجزأة المقطعة صورة واحدة مكتملة، جديرة بأن تكون مرسومة على شُبَّاك كنيسة، أو حتى أحد البارات!

كان من السذاجة أن تظن الذكاء والطيبة وجهين لعملة واحدة. فالذكاء الاصطناعي ـ مثلًا ـ سوف يُلغي من الوجود خمسين في المائة من أعمال البشر الحالية. وسائق التاكسي المسكين الذي تجلس بجواره لا يدري أن السيارات «الذكية» سوف تغتصب ذات يوم عمله الذي يتعيَّش منه! فالبشر الآليون لا يضربون عن العمل مطالبين بأجور أعلى؛ وفي المقابل يستطيعون تحدِّي الفن التقليدي بقدرتهم على تأليف الموسيقى وعلى الرسم وحتى كتابة الشعر. فهل كنا نواجه تحديات الحاضر لخلق تحديات جديدة؟ كلما زاد ذكاء الإنسان الآلي، انحط المخ البشري؛ هكذا تعتقد. لكنها أيضًا تتساءل: كيف تنجح الرأسمالية بآلتها الجهنمية في البقاء، بلا أجور، ولا نقود، ولا مستهلكين؟ كيف ستفلح الشركات الكبرى، التي تحتكر تقريبًا كل ما نحتاج إليه في حياتنا اليومية، في تلبية وإشباع غرائزنا القهرية المكتسبة، التي خلقتها واصطنعتها فينا، فبدت كما لو أنها نزعة طبيعية؟ وهل سنظل نحن قادرين اقتصاديًّا على التمتع بكل اللذائذ التي تلح آلتها الإعلانية على زرعها فينا، كنبع للسعادة التي ما بعدها سعادة، على شرط أن نملك المال اللازم لشرائها؟

في الماضي، كانت شخصيتنا تتكون في البيت، وتتطور في المدرسة. أما الآن، فعقول الأطفال مرتع لتأثير الإعلام. فلم يعودوا الآن يتدربون ببساطة في حضن الأسرة والأصدقاء والمعلمين الطيبين. الآن هناك قوة خفية لا اسم لها تشاركك في تنشئة أطفالك. وهناك أيضًا زيادة في العنف وقلة في الاحترام في العلاقة ما بين جيل وجيل. وفي أدغال ذكرياتها، صارت تشعر بوجود حالة عنف فلسفي لا عنف نفسي، فهي ترى الحياة سديمًا من الفوضى الغامضة لا يقدر على حل ألغازه فيلسوف ولا سياسي ولا شخص مثقف. فكل النظريات لم ترقَ في نظرها إلى الكمال.

آه لو كانت تستطيع الكتابة! حتى بدون نشر، أو جائزة، أو حتى متلقين، لكن الطريق مسدود من الداخل بكتلة من اللاترابط والتفكك.

يا له من جبن! وهل كانت مسرحية «في انتظار جودو» لصمويل بيكيت تحتوي على أي قدر من المنطق أو المعنى؟ وقصيدة إليوت الطويلة «الأرض الخراب» ماذا كانت تعني؟ لقد كان على الطلبة والمدرسين تشريح جثمان القصيدة في الفصل لكي ينجحوا في تذوقها. ولكن هل يقرأ الناس

الآن؟ هل يتوقفون لحظة للتفكير في هذا الجحيم؟ هل يستمع الواحد منهم إلى الآخر؟ هل يحترمون ما بينهم من أوجه اختلاف؟ إنها لا تملك الإجابة عن أي من هذه الأسئلة

.

مع شاعرها

وكيف تكتب وهي محاصرة بكل هذه التساؤلات؟ إلا أنها مدفوعة بذلك الحافز المبهم لأن تكتب، كما لو كان ذلك نوعًا من الاستشفاء يخلصها من فائض التوتر الذهني، أو هو قضاء لحاجة في

النفس، لا تختلف كثيرًا عن حاجة الجسم إلى التبول! بل إنها كانت تشعر أحيانًا بإحساس الرجل العنين الذي لا يستطيع إرضاء حبيبته في الفراش. كل هذا بينما يسيل قلم شاعرها ويسقي روحها.

وأثناء زواجهما، عملت «هي» مترجمة في سفارة ما كان يُسمَّى وقتها بـ«يوغوسلافيا». كانت وظيفة مملة: أن تترجم تلك المقالات السياسية؛ كما أن رئيسها في العمل كان يتفنن في مضايقتها. كم بدا كريهًا بشعره الأشقر وعينيه الزرقاوين! ولهذا غادرت. ثم درست الاتصال بالجماهير بالجامعة الأمريكية، ظنًّا منها أن تلك الدراسة سيكون لها علاقة بالفن؛ لكنها اكتشفت أن التركيز كان فقط على الصحافة والإعلام. وعلى الرغم من أن أداءها الدراسي كان مميزًا ـ فكانت تحصل دومًا على تقدير امتياز ـ هجرت الدراسة، مما أثار دهشة شاعرها. فهي لم تكن تريد أن تصبح صحفية كأمها. وبعد مرور عام من الزواج، تقدمت بطلب للالتحاق بمعهد الفنون المسرحية، لكيلا تظل عاطلة. وكان أحد أساتذتها في التمثيل قد رسم تخطيطًا أوليًّا للصفات الرئيسية المفترض أن تتوفر في شخصية الممثل؛ وأولها أن تكون له نزعة استعراضية. وفي إحدى المرات، نفد صبر زوجها ـ وهو أمر من النادر أن يحدث ـ إزاء رفضها أن تتزين وترسم وجهها وتنتقي الثياب المناسبة للقاء إعلامي. قال: «إن الممثل بطبيعته يسعى للأضواء»، وأضاف: «إنها المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها ممثلة لا تحب التزين!». كما لم تكن تحب التمثيل في أعمال تلفزيونية أو سينمائية، حيث الموضوعات في معظمها تافهة. كانت تتمنى لو أنها عاشت في زمن سارة برنار! لا بد أنها وُلدت في الزمان أو المكان الخطأ. لم تكن تحس بالانتماء إلا على خشبة المسرح القومي الذي أصبحت عضوة في فرقته. لكم تحن الآن إلى رائحة أرضه الخشبية المتشققة، وهي واقفة عليها في اتصال حميم مع جمهور من لحم ودم. إنها لم تحصل قَطُّ على فرص حقيقية لإظهار مواهبها.

كانت تتمنى أن تُجسِّد شخصية «أنتيجون» المحاربة من أجل العدالة؛ من أجل حقها في أن تدفن عزيزها عملًا بقانون البلاد، ولا تترك جثمانه طعامًا للغربان. الآن صار الشرق الأوسط جثمانًا ينزف، ولا يبدو أبدًا أن دمه سيجف على الرغم من شمسه الحارقة! لكنها لم تكن في ذلك اليوم البعيد قد رأت بعد عبر الفضائيات أهوال وفظائع ما تصنعه يد الإسرائيليين الذين يماطلون في تسليم جثامين الفلسطينيين لأحبابهم كسيري القلوب، بعد أن عبثوا بتلك الجثامين، ثم يكتشف الأهل عند الدفن أن الأب أو الأخ القتيل قد تم تجريده من بعض أعضائه، دون أن يهتم الناهبون بالحصول على موافقة أهله.

لم تكن قَطُّ تريد أن تنجب طفلًا لعالم آكلٍ للحوم البشر، على الرغم من كل ما حققه من كشوف علمية. إن حضارة الغرب قائمة على ضرورة الصراع بين جميع الأمم الأخرى لكي تزدهر وتهيمن تلك الحضارة. لقد أصبح العالم معقدًا بدرجة مفرطة. ففي ظل العولمة، والاقتصاد الافتراضي، والأرصدة الافتراضية في وول ستريت، لم يعد يكفي لتنشئة أبنائك أن توفر لهم

الطعام والتعليم، بل صار يستوجب الأمر أن تساعدهم على تطوير مهارات تمكنهم من البقاء والعيش وسط مأزق الفوضى التي جلبها الجنس البشري على نفسه.

وربما لم تكن «هي» لتعيش بعده لولا أنه «هو» أصر على إنجاب طفل منها. كانت المعجزة الثانية في حياتها أن تُفلح في مواجهة تحدي الضياع وحدها من بعده، وفي منح ابنتها طفولة أفضل مما نالته هي. ففي أيامها «هي»، كما صارت تلاحظ، كانت المقررات المدرسية والجامعية أثقل. وقد تأكدت من هذا، لأنهما الاثنتين، الأم والابنة، كانت دراستهما الأساسية في الجامعة هي الأدب. فحين تخرجت «هي»، عافت نفسها ـ من كثرة ما قرأت ـ الروايات والمسرحيات والقصائد. كان الأمر أشبه ما يكون بعُسر الهضم بعد الإفراط في الطعام. وبعد أن أصبحت أمًّا، صار عليها أن تعرف ما الطفولة، وكيفية سلوك ذلك الكائن الصغير في مراحل نموه المتعاقبة. وفي ذلك الوقت، عند ميلاد طفلتها، لم يكن من الشائع أن تهتم أم بالبحث علميًّا في مسألة الأمومة. أما الآن، فشاشة الإنترنت تزدحم بالمعلومات للأمهات الشابات. ولكن في ذلك الحين الأبعد، كان الأصدقاء ينظرون إلى حماسها للأمر على أنه دعابة، ويمزحون معها على «هوايتها الجديدة»، مع تطور مراحل الحمل. إلا أن المسألة تجاوزت الهواية إلى ميل جامح مسيطر، واهتمام جاد، إزاء مسؤولية استقبال قادم جديد لهذا العالم المضطرب. ولم يكن أصدقاؤها ليفهموا جدية الأمر لو حاولت هي أن تشرح. اكتفت بتبسيط الأمر لهم بأن قالت إنه يشبه قراءة كتيبات شرح كيفية استخدام الأجهزة الكهربائية. وبينما صار معظم أصدقائها نجومًا، كانت هي قد زهدت في مهنة التمثيل. كانت سعيدة بما حققوه. وبعضهم صار يحضر لها شرائط فيديو للأعمال التي انتهوا منها للتوِّ، وكانت شغلتها العناية بطفلتها عن حضور افتتاحها لمتابعة نجاحاتهم.

كانت مشاعرها وأفكارها تبلغ من «النعكشة» أنها، في المقابل ولتعويض ذلك، صارت تشعر باضطراب شديد لو رأت سريرها تبدو عليه درجة ولو يسيرة من الإهمال إذا قيس بأسرَّة الفنادق ذات النجوم الخمس. كل شيء في بيت تقاعدها الحالي عليه أن يكون منضبطًا وبالغ النظافة. أما عن ذوقها في الأثاث، فصارت تحب المتواضع منه ولكنه مريح. وكان زميل أمها في العمل، الذي كان يحبها من جانب واحد، ما زال على قيد الحياة، بينما أمها، وكذلك زوجته، قد ماتتا. وعند زيارته لما صارت تسميه «مرفأها» الجديد، قال إنها كانت تصلح لأن تعمل مهندسة ديكور. ساعتها ذكرته بأنها تعلمت الكثير من زياراتها المتعددة في صحبته لمعارض الفن منذ الطفولة. أما الآن، فكلاهما بلغ الشيخوخة، وكلاهما فقد الأحبة. إنها الآن تسامحه، على هجرانه لها بعد أن فقدت زوجها، بسبب بعض الخلافات الحادة حول المستقبل. يبدو أنه كان لا يزال غارقًا في ذلك العشق القديم لأمها، إلى حد أنه، بعد أن رحلت زوجته وتُوفي زوجها، أراد أن يعوِّض الحرمان القديم بتزوج الابنة! كان العرض صادمًا. فقد كان بالنسبة إليها أبًا على الدوام، وصديقًا مقربًا طالما وثقت فيه وحدثته عن مشاعرها حين وقعت في الحب، ورجته أن يقنع والدتها بأن شاعرها هو

الزوج المناسب. كان هجرانه هذا لدور الأب مفاجئًا وقاسيًا ومدمرًا لها، في لحظة كانت تعتمد فيها عليه عاطفيًّا، فوجدت نفسها تلتمس النجاة بتأليف كتاب عن زوجها بعد عام من رحيله. كان عنوانه «التداخل ونزيف الزمن».

ولم تكن تعلم قبلها أنها قادرة على الكتابة بالعربية. إلا أنها لجأت إلى من يراجعه لغويًّا لعدم ثقتها في تمكنها من لغتها الأم. وكانت قد سبقت ذلك الكتاب محاولة لها بالعربية لكتابة مسرحية، وكان لجوؤها للكتابة في الحالتين متشابهًا. ففي الحالة الأولى، حدث ذلك بعد أن فشل طبيبها النفسي في مساعدتها خلال جلسات طويلة من التحليل النفسي لم تُفضِ جميعها إلى أي تحسن، لذلك فقد لجأت لكتابة تلك المسرحية كنوع من النزف على الأوراق. لقد ظن معالجها النفسي أنها قد سامحت أباها، لكنه كان مخطئًا في ظنه إلى حد بعيد. وكان العجيب في الأمر، أن المسرحية تحكي عن عائلة فلسطينية ـ عاشت أجيالها الأربعة في القاهرة ـ مكتوبة بالعامية المصرية القريبة من الفصحى! وقد عثرت سيدة يهودية فرنسية على نسخة من الكتاب في سوق الكتب، وطلبت منها الإذن لكتابة النص بالحروف اللاتينية بدلًا من العربية لتدريسه في الخارج لطلبتها الذين تعلمهم اللهجة العامية المصرية، وذلك دون مقابل مادي. وقد وافقت دون مبالاة، لأنه في النهاية لم يكن هناك من يريد إنتاج العمل على خشبة المسرح، كما أن الموضوع لم يكن جذابًا من الناحية الجماهيرية. وقد أرسلت إليها تلك السيدة فيما بعد نسخًا من مسرحيتها بالحروف اللاتينية، ضمن كتاب يضم عدة مسرحيات، من ضمنها واحدة ليعقوب صَنُّوع، الكاتب اليهودي المصري من أصل إيطالي، الذي كان أول من قدَّم عملًا مسرحيًّا بالعامية المصرية، وذلك عام ١٨٧٠. وقد استفاضت تلك السيدة في مقدمتها في الحديث عن حياة صنوع وإنجازاته، أما هي، فعلى الرغم من أن تلك السيدة كانت تعرف من هي، فإنها ذكرت في مقدمتها أنها «لا تعرف شيئًا عن كاتبة ذلك العمل».

ومن المحتمل أن يكون موضوع المسرحية قد صادف هَوى عند تلك السيدة، لأن الأب في النص باع أرضه لليهود. وكان هذا نوعًا من التجسيد الرمزي لسخطها على أبيها الذي لم يبع في واقع الأمر أرضه. وفي إعلام الصهاينة ينشرون فكرة أن الفلسطينيين تركوا أرضهم بإرادتهم، ويخفون في المقابل حقيقة المذابح التي ارتكبتها عصابات الهاجانا في حق القرويين الفلسطينيين لنشر الرعب بينهم وإجبارهم على الرحيل. وقد كان عنوان المسرحية «قلوب مدهونة أزرق» والعنوان مستوحى من بعض مظاهر هزيمة ٦٧ (المصابيح المطلية بالأزرق والنوافذ المغطاة بورق أزرق).

إن بيت تقاعدها يبدو وكأنه منزل للمصيف. فهو لا يعرف قطع الأثاث الثقيلة التي تشبه رياش القصور، وكأن مالكها سيُخلَّد في الأرض ويعيش عمرًا أطول؛ عمرًا من المتوقع أن تعيشه ممتلكاته الفاخرة تلك، عملًا بنفس فلسفة قدماء المصريين من بناة الأهرام، أو إقطاعيي أوروبا بناة السرايات. فبالنسبة إليها، الحياة لحظة عابرة، وأقصى ما تطمح إليه أن تمنح ابنتها طفولة أفضل

مما عاشته هي؛ أن تتوصل إلى طريقة لفهم وتقليل ذلك الألم الذي هو مصير من يعيش في هذا الجزء من العالم! ومهما سعت إلى حماية ابنتها، فإن الفيضانات والأعاصير، مادية كانت أو روحية، لا بد أن تدق بابها.

وقد حدث هذا بالفعل، مع هبوب إعصار ما سُمِّى بـ«الربيع العربي»، الذي دعاه البعض بـ«الانتفاضة»، والبعض سمَّاه «ثورة»، وآخرون رأوه مؤامرة مدعومة من الغرب كثورات أوروبا الشرقية «ذات الألوان». حدث ما حدث في ميدان التحرير؛ المكان نفسه الذي كان يذهب إليه جدها لتجديد تصريح إقامته. تعرضت ابنتها، مع ثلة من الشباب لا يمكن أن تتشكك في وطنيتهم، وعدد من المواطنين العاديين الذين لديهم اعتراضات وجيهة على النظام، تعرضوا لهجمات عنيفة، نسبها البعض للجيش، والبعض عزاها لبلطجية مدفوعي الأجر وقتلة دفع بهم النظام نفسه. بدأ الأمر في يوم عيد الشرطة، الذي يُحيي كل عام ذكرى بطولة عدد من رجال الشرطة شبه العزل في مواجهة جنود الاحتلال البريطاني في الإسماعيلية في ٢٥ يناير ١٩٥٢. وقد علمت بعد ذلك بسنين، أن أمها «هي» كان لها دور في تلك الذكرى، كصحفية من جريدة الأهرام تنكرت لتغطية الحدث في زي ممرضة من الصليب الأحمر. لكن الضمير الجمعي الآن قد نسي ما حدث في ذلك اليوم. فالفظائع التي ارتكبت على يد شرطة مبارك غطت عليه، في جو امتلأ بالشائعات حول نية الرئيس توريث ابنه الحكم، لتعود الجمهورية مملكة من جديد. فتدفقت الجماهير بأعداد هائلة إلى ميدان التحرير محتجة على أفعال الشرطة، وعلى مبارك، تحت شعار «عيش، حرية، كرامة إنسانية».

وقد اتهمت الثورة المضادة وإعلامها الذي يمتلكه كبار رجال الأعمال هؤلاء الشباب بأنهم خونة. وعاد المجتمع مرة أخرى إلى حالة الاستقطاب. فمعظم من ينتمون لجيل أمها ينظرون إلى الجيش نظرة مثالية، لأنه حرر مصر من حكم الملكية والاستعمار البريطاني، ويرفضون فكرة أن شباب اليوم تعرضوا للظلم. إلا أنه من المؤكد، خلال الفوضى التي حدثت، أن كثيرًا من الشباب البريء سُجِن. ويبدو أن عقل من يحملون تلك النظرة تجمَّد عند مرحلة تاريخية بعينها، ولم يعودوا قادرين على النظر إلى ما أعقبها، والتعامل مع ما استجد من ظروف. والواقع أن جيل ابنتها من المنخرطين في الشؤون العامة شهد من الكبت والعنف ما لم يره جيل أمها. وهم ينتقدون أي مؤسسة تتورط في سلوك لا يتسم بالعدالة، حتى تلك التي كانت الأجيال السابقة تنزهها كضمانة للأمن القومي. لقد كسرت الأجيال الجديدة حاجز الخوف. وصارت تُصِر على أن مرحلة كامب ديفيد تختلف عن أيام عبد الناصر. لكن معظم الناس العاديين الذين أرهقتهم أيام القلاقل انضموا إلى الرؤية العامة التي تتهم هؤلاء الشباب، واضعين مواصلة حياتهم المستقرة واعتبارات كسب العيش فوق أي اعتبار آخر. وفي المقابل قدم الجيش حلولًا وقتية للسيطرة على الارتفاع الكبير في أسعار السلع الغذائية، لكنه لم يقدم بعد استراتيجية لحل المشكلات الاقتصادية لجموع الشعب من جذورها.

كان الأمر عبئًا ثقيلًا على امرأة تروم الكمال. المسألة ليست كتابًا يمكنها أو لا يمكنها أن تكتبه. بل ما تسعى إليه هو أن توجد في حياة ابنتها، وأن تعوِّض ما كاد أن يكون غيابًا لوالديها في حياتها «هي». فابنتها ليست دمية تدللها أو تكسرها كما يفعل الأطفال؛ ليست دبًّا أو أرنبًا قطنيًّا. لقد كان عليها أن تكافح الآثار الجانبية للعقاقير النفسية التي وُصفت لها وكانت تصيبها برغبة في النوم تعيقها عن أداء المهمة الأساسية لها في هذه الحياة.

كانا ـ هي وشاعرها ـ يجلسان معًا هناك في الأعلى، هناك فوق قمة العالم، يتحديان العالم برغبتهما الجسورة في أن يكونا سعيدين، وأن تكون لهما آمال وأحلام، على الرغم من الحمل الثقيل لكل منهما من مرارات الماضي وآلامه. تلك اللحظات النادرة، ستظل لهما بمثابة الملاذ والمَنْجَى حين يتجهم في وجهيهما المستقبل؛ بمثابة المَنِّ والسلوى، زوَّادة رحلتهما المشتركة. كانت طفولتها «هي» غير سعيدة، فكيف تجعل طفولة ابنتها أسعد؟ شعرت بأن عليها من أجل ذلك أن تدرس الأمر، وكأنها لم تعش طفولة أمدتها بخبرة حياتية؛ فاشترت العديد من الكتب. كان واحد منها بعنوان «تاريخ الطفولة»، أو «كيف تخاطب الأطفال والآخرين». قرأتْ عن مراحل تطور الطفل عاطفيًّا وذهنيًّا، كما لو كان الأمر يتعلق بكائن من الفضاء الخارجي! لقد كان شاعرها يكتب للأطفال حواديت جميلة تسعد الصغار والكبار. لكنها وقتذاك لم تكن تعلم أنها ستتحمل وحدها المسؤولية وابنتها لم تُكمل بعد عامها السادس، وأنه «هو» سيرحل ويتركها بمفردها، وحدها في وجه المجهول. كان يتأملها ضاحكًا، وهي تقرأ بياجيه، هيوبر، مونتاني، فرانسواز دولتو، أو أي كاتب آخر في موضوع الطفل استطاعت أن تحصل على أعماله. ولم تكن تتلقى ما تقرأه ببساطة، بعقلها المفرط في نزعته النقدية؛ كانت تتحدى تلك الآراء التي تؤكد أن الأطفال حين يكبرون يكررون نفس الأخطاء، والعيوب الخِلقية والخُلُقية، حين يكوِّنون أسرهم الجديدة. وقد أبدت مرة ملاحظة تلقائية: أن مكتبة البيت يجب أن تُجدَّد من وقت إلى آخر، حيث إن ما كان صحيحًا أمس، ليس بالضرورة صحيحًا اليوم. ساعتها نظر إليها «هو» بإعجاب، وكرر ما قالته أمام أصدقائه. فأين هي تلك العيون التي تبعث على الطمأنينة والتي تفتقدها اليوم بشدة؟!

كانت ابنة وحيدة؛ وكذلك كانت أمها وابنتها. إنهن صنعن معًا ثلاثة أجيال من النساء، كل جيل له ميزاته الخاصة وعيوبه، ونقاط القوة والضعف فيه؛ وأحدثن معًا تراكمًا معرفيًّا، وسيكولوجيًّا، من تجارب الماضي الإيجابية والسلبية، يؤهل الواحدة منهن لتوفير سبل الراحة لطفلتها في مواجهة عالم غير مريح، وفي قلب منطقة منه مليئة بالصراعات، وعلى مر الأجيال تسعى القوى العظمى إلى إخضاعها. إنها تشعر الآن بأن البشرية وصلت إلى مرحلة من تطورها يبدو من خلالها أنها حققت كل شيء، وفي الوقت نفسه لم تحقق شيئًا!

كان الذهاب إلى السينما في زمانها هو الفُسحة الوحيدة المتاحة. الآن في زمان ابنتها متاح لها، لا التلفزيون وحده، بل عالم الذكاء الاصطناعي أيضًا. كانت «هي» في الماضي تحتفظ بتذاكر

السينما بعد انتهاء الحفلة لمدة طويلة، وتدوِّن على ظهرها اسم كاتب سيناريو الفيلم ومخرجه، إضافة إلى عنوان الفيلم، وذلك قبل أسماء النجوم؛ وهو أمر لم يكن معتادًا من طفلة في سنها. لم يلاحظ أحد ذلك. كان من الممكن لأهلها إن اهتموا أن يكتشفوا فيها قدرات مستقبلية. وكانت «هي» في الخامسة عشرة حين رأت لأول مرة جهاز تلفزيون، في حجرة استقبال بأحد مستشفيات إنجلترا، وكان بالطبع جهاز «أبيض وأسود». وتقدمت في ذلك الوقت بطلب لزيارة ستوديوهات هيئة الإذاعة والتلفزيون البريطانية، لكن الطلب لم يُقبل لوجود إصلاحات في المكان، وقد أصيبت حينها بخيبة أمل كبيرة. كانت آنذاك وحيدة، في صحبة أبيها بالمستشفى حيث كان يُجري عملية جراحية، وليس هناك شخص كبير يواسيها.

ما زالت تتذكر ذلك البرنامج، حيث كان التلاميذ يقدمون عرض بانتومايم يُصوِّرهم وكأنهم يتناقلون بحرص ورِقة، من يد واحد إلى الآخر، جثمان طير كسير الجناح. كانوا يحملون ذلك العصفور الخيالي في بطون أكفهم، ويحاولون بذلك الحرص الشديد الإقلال من ألمه بقدر ما استطاعوا. ولم تكن تعي وهي تشاهدهم أن رغبتها في ممارسة التمثيل قد بدأت لتوِّها.

إنه الإدراك نفسه غير الواعي الذي يجعل قرد الشمبانزي يختار من الطعام ما يحتاج إليه جسمه. لم تكن قد قرأت بعد عن عملية «التطهر الروحي» التي تحدث لنا حين نشاهد المآسي على المسرح، بتوحدنا العاطفي مع أبطالها؛ أو عن استخدام «تمثيل المشهد المؤلم» في العلاج النفسي، واستخدام الممارسة الفنية بأنواعها في شفاء الأمراض النفسية. ودون أن تعي، صار الفن يجري منها مجرى الدماء، ويمثل لروحها ما يمثله الخبز والماء للجسد! في قلب العتمة، صار في يدها خيط مضيء قادها بعدها طوال حياتها، وأرشدها للاختيارات الصحيحة، وهداها إلى طريق الصحة العقلية، على الرغم من أنها لم تكن تدرك إدراكًا واعيًا تلك النزعات الفنية التي كانت منذ ذلك الوقت تعتمل في داخلها. وهل كانت تجرؤ - في تلك المرحلة الأولى - على صياغة رغبة معلنة، وسط عالم تتناقلها فيه الأيدي، من بلد إلى آخر ومن قارة إلى أخرى، خاضعة لرغبات الكبار وأوامرهم في عالم سلطوي يستبد بها، ووحدة تسحقها حتى في وسط الزحام، ومسؤوليات أكبر من سنها تضطر للاضطلاع بها، فتصحب وحدها في تلك السن والدًا يُجري جراحة في بلد غريب، وليس معها راشد يسندها، محاطة بسرب من الممرضات يشفقن عليها ويتعاطفن معها كما يبدو من نظراتهن، وكأنهن ذلك الصف من التلاميذ المؤدين لبانتومايم العصفور كسير الجناح، حيث كانت هي ذلك العصفور مثار الشفقة؟

كانت زوجة الجراح، الذي أجرى العملية لوالدها، سيدة طيبة من اسكتلندا. قابلتها بالصدفة في حجرة الانتظار بعيادة زوجها اللندنية في هارلي ستريت. ويبدو أنها كانت في انتظاره للخروج معًا في نزهة لندنية، حيث كانا يقيمان خارجها في فيلَّا جميلة في منطقة هاتفيلد بمقاطعة هارتفورد شير، ألا كم تلعب الصدفة من أدوار مؤثرة في حياة الناس! لقد شعرت هذه السيدة بمحبة تجاه هذه

البنت الصغيرة التي كانت جالسة في حجرة الانتظار، فاقترحت على أبيها فكرة أن يلحقها بمدرسة داخلية في إنجلترا، وهكذا حققت دون أن تدرك رغبة والدة تلك البنت في أن تتلقى ابنتها تعليمًا راقيًا في الخارج. وكان والدها في ذلك الحين قد دخل في علاقة مع عشيقة جديدة، وصار يتمنى التخلص منها، بعد أن كان يُصر بعناد على حرمانها من العيش مع والدتها. لكنها هذه المرة، لم تعد تعيش لا مع أم ولا مع أب. إلا أنها كانت ثلاث سنوات مثمرة من النمو والتطور الفكري؛ وفي الوقت نفسه مؤذية لمشاعرها وعواطفها. فقد صارت تشعر بأنها طفلة مهجورة، في عمر هي فيه ما زالت تحتاج إلى غذاء الروح من جانب كبار العائلة، حتى إن كان هؤلاء الكبار يفتقرون إلى الكمال، وبهم ما بهم من العيوب، كل واحد بطريقته.

بعد عودتها إلى القاهرة، وقعت في هوى شاعرها بسرعة؛ في مدة لم تزد على شهرين. كيف حدث هذا، وهي التي كانت تتساءل من عام واحد فقط: ما الحب؟! كيف توصلت إلى إجابة تساؤلها بهذه السرعة؟ بل إنها صارت مقتنعة بمن اختارته بإصرار لا تراجع عنه ومستعدة للوقوف في وجه عائلتها، حتى أبيها نفسه، الذي لو مد الله في عمره قليلًا لكان حرمها من الميراث؛ لكنها لم تكن لتعبأ. ربما كان الأمر محاولة لاواعية للاقتراب من تحقيق أحلامها الفنية: بأن تكون زوجة شاعر!

كانا يجلسان على قمة العالم، يتأملان خريطة حلمهما، وكأن الزمن قد توقف، وعيونهما مثبتة على مستقبل غير ظاهر للعيان. لو كانت لديهما بللورة مسحورة يستبصران خلالها ما سيجيء، لرأيا في تلك الخريطة الأحداث التي وقعت؛ لرأيا التاريخ موجزًا؛ تاريخ ما سيحدث لشقة الأحلام: السكان الذين سيستأجرونها، خلال عقدَي السبعينيات والثمانينيات وما بعدهما، في فترة انفتاح البلد على نظام مالي كوكبي. كان بين هؤلاء السكان من جاءوا من دول الخليج لسياحة جنسية، وانتشروا بعد ذلك من وسط البلد إلى مناطق قاهرية أخرى، مفسحين المجال لعدة عائلات سودانية فقيرة تجمعت في تلك الشقة الكبيرة لاقتسام إيجارها فيما بينهم. ثم جاء بعدهم سكان إسرائيليون تركوا على جدران الشقة آثار أحذيتهم حين اكتشفوا أن مالكتها فلسطينية. ثم جاء من بعدهم واحد من رجال الأعمال، لبناني الجنسية، جاء بِنيَّة استئجار العقار كشقة مفروشة، لكنه حوَّلها إلى مكتب، بعد أن كوَّم كل أثاثها في تراسها الواسع، ثم هرب بملايينه من البلاد دون أن يدفع الإيجار. وكان قد سخَّر لخدمته ضباط شرطة سابقين سهَّلوا له الأمور بعلاقاتهم فصار يفعل ما يحلو له. وقد سرق رجل أعمال آخر بين هؤلاء العين السحرية لباب الشقة التي تساوي ملاليم، وغادر الشقة مخلفًا وراءه فاتورة اتصالات تلفونية هائلة لم يدفع منها مليمًا. ولكن هل هذه خسارة حقًّا، إذا قيست بما تكبده أولئك الفلسطينيون الذين هُدمت بيوتهم وعاشوا حياتهم في خيام اللاجئين؟! ربما كانا سيشعران ببعض العزاء، وهما يريان ما يريان خلال البللورة المسحورة، لأنها، على الرغم من حسرة الترمُّل، استطاعت أن تستجمع من القوة ما أعانها على أن تقوم مرة بعد مرة فتجدد تلك

الشقة وتعيد تأجيرها لتغطي نفقاتها هي وابنتها بعد أن رحل «هو». إن الأمر يشبه حماية أرض على الرغم مما حاق بها من دمار على أيدي وأقدام الغرباء. ولكم كانت أثناء ذلك على شفا ضياع كل شيء، كما حدث مع الوطن الأم!

إلا أن كل هذا لم يحدث بعد. إنهما الآن ـ كما سبق أن وصفت ـ فقط ينظران إلى خريطة بيت الأحلام، وتمتد أيديهما لتحريك تلك النماذج المنمنمة من الورق المقوَّى لقطع الأثاث المتخيلة في محاولة منهما لرسم ديكور مبدئي لذلك العش المستقبلي. إن إدراكها البصري لما حولها يشبه رؤية الانطباعيين الفرنسيين، دون أن تملك للأسف أدوات فنان للتعبير عن تلك الرؤية. وفي إحدى المرات أسَرَّت خجْلَى إلى شخص ما أنها تريد أن تكتب، فأجابها ساخرًا: «ولكنك صغيرة جدًّا، فماذا لديك من شيء يقال؟». إن الغرباء أحيانًا يبدون ملاحظات تجرحك وهم لا يشعرون. ولقد ظلت تأمل أنها في يوم من الأيام، حين تبلغ سن الحكمة، وحين يعكس مُحيَّاها وطأة السنين، سوف تُمحِّص على الأوراق كل تلك الأحداث الباطنية التي هزتها من الداخل، وخَلَّفت ندوبًا لا تُرى، أخفاها عن العيون مظهرها الساذج البريء الذي يُبديها أصغر من عمرها الحقيقي، وموَّهتها تلك الهالة التي أعارها إليها في عيون الناس كونُها تبدو ثرية مرتاحة البال، ومتخرجة في الجامعة الأمريكية ـ أقول ظلت تأمل أنها من خلال تمحيص كل ذلك ستصل يومًا ما إلى سلام النفس. كان أصدقاؤها يضحكون حين تقول لهم بحماس: «يومًا ما سنتساند ونحن نمشي، متوكئين على عكاكيز!». وكان مرجع ضحكهم ما كان يبدو في كلامها من تعجُّل الوصول إلى تلك المرحلة التي عادة ما يخشاها الناس ويتشاءمون منها!

حين فرت أسرتها إلى مصر في العام ١٩٤٨ كانت في الرابعة من عمرها. إنها لا تتذكر أي شيء عن فلسطين. كل ما لديها صورة فوتوغرافية التُقِطت لها في حيفا وهي تصرخ وظهرها إلى البحر. كانت دائمًا لا تحب صوت الموج. وكان عليها أن تفهم الحياة معتمدة على نفسها دون مساعدة من مدرب منتبه لها. ولقد قرأت الكثير عن فن الكتابة. واستنتجت من خلال محاولاتها الدؤوبة أنها لا تملك الخيال، فقد حاولت عبثًا أن تكتب عن بطلة روائية أرمينية أو كردية فلم تُفلح. وقالت لنفسها إن بعض المؤلفين يفقدون عقلهم جرَّاء الكتابة، أو يدخلون المعتقلات. والعلماء يصفون الأقراص الدوائية لحالات اعتلال النفس أو اختلال المزاج. ولقد قرأت بنهم في موضوع الاكتئاب الدوري ثنائي القطب، وعن الشيزوفرينيا، والبارانويا، والانفصام الثنائي أو الثلاثي للشخصية، وعن النزعات الانتحارية، وكل الأمور المتعلقة بتلك الموضوعات، التي بسببها يوضع البعض في محابس ضيقة، أو يقيدون بالقميص الكتَّافي. كل تلك الوسائل العلاجية تعكس افتقارًا للبصيرة. وضمن ما قرأته كتاب بعنوان «الألعاب التي يمارسها الناس». والآن تتساءل ما إذا كان بإمكان مؤلفه إيريك برن أن يجد له عنوانًا أصدق تعبيرًا. فالناس بالأحرى في حالة حرب لا لعب، مع الآخرين ومع ذواتهم؛ يقاتلون مثل دون كيشوت أعداء وهميين داخل ذواتهم وخارجها.

دائمًا ما تعود بفهم أعمق لمقولة ذلك الفيلسوف الإغريقي الذي نصح ذات يوم: «اعرف نفسك». مشكلتها حقًّا أنها لم تعرف نفسها، ولا إمكاناتها؛ ولهذا لم تصل للتحقق الأكمل. وكانت قدرتها على التحصيل المدرسي أو الجامعي دائمًا ما تتذبذب بحسب درجة ما تشعر به من استقرار عاطفي، سواء في بلدها أم في الخارج. إن تعلم لغة أجنبية يوسِّع المدارك، لكنه، بشكل ما، خلق هوة تفصلها عن ثقافتها الأصلية. وقديمًا قد شبَّه الشاعر الإنجليزي جون دَن المجتمع بالجسم الإنساني، كل عضو فيه له وظيفة حيوية مهمة، مهما كانت ضئيلة. فلو أجريت جراحة تجميل في الرأس، فإنك ستفقد ما يميزك من فرادة وأصالة. وفيما يخص ما كنا نتحدث بصدده: ستنقل عن الثقافات الأخرى، مكررًا في الغالب أخطاءها، لا مزاياها، بدلًا من أن تطوِّر وتصحح وتوسِّع ثقافتك الأصلية. لقد تورط الإعلام، مع سبق الإصرار والترصد، في نشر مفهوم الحلم الأمريكي، في ظل جهل الناس بعدد المشردين بلا بيت في بلاد الغرب، ولهذا فإنهم واصلوا الهجرة ـ شرعية أو غير شرعية ـ إلى «العالم الأفضل».

ما الحرية؟ إن رواية جورج أورويل «١٩٨٤» لم تعد مجرد حكاية خيالية. لقد هالها ما قرأته حول الرقابة الكوكبية لبريد الناس الشخصي، بحيث لا يُفلت أي فرد من الرقابة، وذلك لتحمي الحكومات نفسها من أي «عدو محتمل». كل تلك الألعاب الإلكترونية والمثيرات الاصطناعية للعالم الافتراضي قللت من التواصل الإنساني. إن الأمر يبدو كما لو كان الواحد منا على اتصال بكل الناس وفي الوقت نفسه ليس متصلًا بأحد. وسرعان ما أعطى العلماء لهذه الحالة الجديدة من الإدمان اسمًا موازيًا لمدمن الكحول (alcoholic)، ومدمن العمل (workaholic). إلا أن إعطاء الإدمان الجديد اسمًا يخصه ليس كافيًا. فمن المهم أيضًا فهم أسباب نشوئه. هل هي نزعة الهروب من النفس؟ أم تجنب الواقع؟ أم هو التمرد على ما نراه قاسيًا أو مؤلمًا في حياة الفرد منا؟ لقد وصل الحال إلى أن أمًّا يابانية تمكن منها إدمان الإنترنت فأذهلها عن إطعام رضيعها فمات. لم يمت من سوء التغذية كما يحدث لأطفال أفريقيا؛ بل ببساطة مات من الإهمال.

أغلب الظن أنها «هي» كانت طفلة غير مرغوب فيها. فقد جلبها إلى الحياة شخصان تطلقا بعد ستة أشهر من زواجهما. إن الأطفال الرُّضَّع يشعرون بما حولهم حتى وهم لا يزالون أجنة في بطون الأمهات؛ ويستجيبون للمؤثرات الصوتية. ولا بد أن «طفلتنا» قد سمعت الكثير من الشجار والعويل أثناء حمل أمها بها، بينما من المفترض أنها كانت تشعر بالأمن والأمان. تلك الأصوات العالية، الأصوات الغاضبة، استمرت وتواصلت بعد ميلادها. فقد كانت أسرتها دائمًا ما تذكرها بالإخوة كارامازوف. فجدها قد ظل يتشاجر بالقلم والورق حتى بعد أن فقد حنجرته. وكان اللوم والاتهامات تُتبادل ليل نهار. من كان على حق ومن كان المخطئ؟ كان من الصعب عليها في كل الأحوال رؤية أقاربها الأقربين وهم يتشاجرون لأجل غير مُسمَّى. وعلى كل حال، لم يكن هناك من يشرح لها، أو يعزيها.

لم يخطر ببالها أنها ذات يوم، ستجلس على قمة العالم، في ذلك الجزء من كوكبنا، وفوق كل شيء، أنها ستشعر بالسعادة لأنها أصبحت زوجة شاعر. «وهو» لم يكن شاعرًا فقط لما يكتبه، بل كان شاعرًا بما كانه؛ بسلوكه وتصرفاته. كان نبيلًا في كثير مما فعل لمن حوله، دون صخب وإنما في الكتمان. كان يتبنى بعض الشعراء والممثلين الشُّبَّان، حتى إن كانت مواهبهم محدودة. وحين دُعيا ذات يوم لمشاهدة عرض مسرحي للهواة، وكان مملًّا للغاية بسبب المغالاة في الأداء، رفض المغادرة وأصر على مشاهدة العرض حتى نهايته، خشية إيذاء مشاعر من قدموه. كان كرمه يفوق كرمها. أخيرًا أصبح لوجودها في الحياة، من غير دعوة من أحد، غاية ومعنى. لو عاش أبوها لرفض هذا الزواج. فلم يكن يريد لها أن تعيش في مصر عبد الناصر، أو أن تبقى في كنف أمها التي طلقها. كان مصرًّا على أن تنهي دراستها الجامعية في الجامعة الأمريكية ببيروت، وتعيش هناك مع عمتها التي كانت «هي» تمقتها. ولو كان قد عاش، لكان حرمها من الميراث. لكنه مات في الأربعين؛ مات ثريًّا، لكن موته كان بداء يصيب عادة الفقراء: مرض السل. كان يقيم في السودان، وجرَّها إلى هناك لتحيا قسرًا معه. وكان شخصًا محافظًا في محل إقامته، ويحرص على سمعته وسمعة ابنته كما هو الحال في أي مجتمع شرقي. أما في الخارج، فلم يكن يمانع أن تسلك ابنته سلوك أهل الغرب. وكان هذا نموذجًا معتادًا لازدواج المعايير الذي كان شائعًا في القرن العشرين ولم يستطع الإفلات منه إلا القليلون.

كان زوجها استثناءً نادرًا من ذلك الداء الشائع. أما هي، فقد كانت قادرة على مسامحة والدها الجاهل، بعكس موقفها من أمها ذات المواقف المليئة بالتناقض، ففي السياسة، كانت أمها اشتراكية، إلا أن أصولها البورجوازية كان لها في حياتها الخاصة رأي آخر. ثم ألم تكن تعلم جيدًا طبيعة والد ابنتها بطلة حكايتنا الطائشة «الطيارة»؟ مع ذلك، «هي» ما زالت تتذكر إصرار أمها وتأكيدها مرارًا وتكرارًا بصوت عالٍ على «حق» ابنتها في ثروة الأب. ولولا شاعرها لما استطاعت «هي» أن ترث مليمًا، ولخسرت القضايا المرفوعة في الخرطوم ضد عمتها، وزوجة أبيها التي كانت أصغر سنًّا منها. لقد استمع «زوجها ـ القادم» العزيز جدًّا، استمع صابرًا إلى أبشع الألفاظ من عمتها حين تقابلا معها في الخرطوم. وأظهرت لهما العمة وصية تركها الوالد واهبًا فيها كل ممتلكاته لها، أي لأخته. ودافع «هو» عن خطيبته قائلًا للعمة إن الوصية في الإسلام لا تتعدَّى ثلث التركة. وقد انفجرت العمة في وجهه قائلة إنها «هي» ليست ابنة شرعية، لأن والديها تطلقا، وهو أمر غير مسموح به في العقيدة الكاثوليكية. بربكم تخيلوا الأثر الذي يمكن أن تتركه هذه الكلمات على رجل شرقي. لقد تمت إهانتها بقسوة؛ إلا أن الكلمات السامة لتلك العمة لم يكن لها عليه أي أثر. فلم تكن هذه المرة الأولى التي يستمع فيها إلى ما يخص خلفيتها العائلية أثناء خطوبتهما. فقد كانت لهم جارة مصرية تسكن بجوار شقة حلمهما. وحاولت تلك الجارة تشويه سمعة جدتها أمامه، فأخبرته أنها كانت في الحقيقة تعمل عاهرة في فلسطين! أما رئيسه في العمل، ذو السيجار الكوبي

في مجتمع من المفترض أنه اشتراكي، فكان رأيه أنها دون مستواه؛ فهي تنحدر من عائلة من صغار التجار.

فهل كان، بعد كل ما سمع، وعلى الرغم من كل الطين والحجارة التي ألقيت في وجهها من هنا وهناك، ما زال بنفس اللهفة على بناء عش يجمعه بهذه الفتاة الصغيرة؟ كان يقول لنفسه: «هل أحبها؟ الحب كلمة صارت مبتذلة. فقد قيلت ملايين المرات، لملايين من المخلوقات العاديات! وهي مخلوقة فريدة من نوعها، وحساسة، إلى درجة أن مشاعري نحوها لا يمكن ترجمتها بكلمة مستهلكة، بكثرة جعلتها خرقة مهلهلة؛ تُرَّهة! تقال وتعاد، ثم تعاد وتقال، في الأغاني الغبية، بذوق سقيم سوقي. يحتاج الأمر إلى مساعدة من يونسكو لكي أصف مشاعري نحوها! لا أعرف!».

وهي أيضًا لا تعرف: كيف وثقت أمها في أبيها، لمجرد أنه وعدها بإرسال ابنتهما إلى أرقى المدارس بعيدًا عن مصر، وطنها الثاني! وبالفعل، أُلحقت بمدرسة في جنيف لمدة أسبوع، ثم قرر أبوها إخراجها منها حين اكتشف أنها مدرسة مشتركة. فعادت مؤقتًا إلى القاهرة، ثم جرها أبوها معه إلى الخرطوم. لمَ لم يبحث، بدلًا من ذلك، عن مدرسة بنات في سويسرا؟ ولماذا لم تسأله أمها هذا السؤال؟ في ذلك التوقيت، كان كل ما تحتاج إليه أن تكون محاطة بوجوه تألفها. كانت حينها تنظر إلى أمها نظرة مثالية، ولم تكن تشبع من رؤيتها، أو حتى وجودهما معًا في المدينة نفسها. أما أن تفصل بينهما مئات الأميال، فكانت تجربة ماحقة!

إن كل ما في الأرض من مال لا يمكن أن يعوِّض هذا الشعور بالفقد والاغتراب. لقد دفعت ثمنًا فادحًا في مقابل أن ترث أباها. إنه حتى لم يكلف نفسه يومًا بالبحث عنها؛ إنما اكتشف بالصدفة وجودها في مصر مع أمها بينما هو يقيم في السودان. وبعد وصولها معه إلى هناك، أرسل خطابًا إلى أمها معلنًا أنها لن تعود إلى مصر، بل ستبقى معه. وما زالت «هي» تتذكر مكالمة أمها التلفونية لها من مصر، تسألها خلالها «إن كانت تحتاج إلى محام». كان ظل أبيها الفارع يهيمن على المكالمة، ويلوح كأنه إله قادر على كل شيء. تطلعت إلى قامته العالية، وإلى كأس الويسكي في يده، ثم أجابت أمها بضعف أنها على خير ما يرام. لقد وقع ما وقع. لقد فات الأوان. تساءلت إن كانت أمها وجدتها ستُعنيان أصلًا بمقابلته إن كان قد هبط مصر مفلسًا! فجأةً باتت تشعر بتقدمها في العمر كثيرًا عن سنها الحقيقية.

كانت أصغر سنًّا وأشد براءة من أن تدرك حينها الأثر الكارثي الذي خلَّفته التغيرات الاجتماعية في روح أمها: تلك السيدة الجميلة التي كانت تشبه في صباها نجمات السينما في زمن الأبيض والأسود، لكن مشيتها كانت مشية جندي؛ أمها التي أكملت دراستها للصحافة بالجامعة الأمريكية في القاهرة، في قسم الصحافة حديث الإنشاء بتلك الجامعة التي تأسست في بدايات القرن العشرين بمنحة من مؤسسة فورد ـ أكملتها في ثلاث سنوات بدلًا من أربع، لشدة لهفتها على الاستقلال اقتصاديًّا عن والدتها. وحين جاء مستر جون. س. بادو. الذي كان يرأس تلك الجامعة بين عامَي

١٩٤٤ و١٩٥٣، في زيارة لمصر في الثمانينيات، تذكر تلك الفتاة التي عرفها طالبة استثنائية. كانت أمها أول امرأة تُعيَّن محررة في الأهرام، التي كانت في ذلك الوقت ما زالت تحتفظ بجوٍّ عائلي حميمي، وكانت تملكها عائلة سورية. وكانت «هي» تجلس هناك، حيث تعمل أمها، وبهدوء تحفظ أشعار لافونتين عن ظهر قلب، وبسذاجة تعتقد أن كل النساء مثل أمها. وقد غطت أمها، خلال عملها الصحفي، العدوان الثلاثي (الإنجليزي-الفرنسي-الإسرائيلي) في حرب السويس ١٩٥٦، متنكرة في زي ممرضة من الصليب الأحمر. وتم التقاط صور فوتوغرافية لها مع أيزنهاور في مطار القاهرة. كما أجرت حوارًا مع هيلين كيلر الشهيرة، ومع النجم الذي قدم دور روبنسون كروزو في فيلم في تلك الأيام. وكانت، لطبيعة عملها، تذهب لحفلات الكوكتيل في السفارات، وتقابل هناك شخصيات مثيرة للاهتمام. كما تولت الإشراف على الصفحة الأخيرة بالجريدة، لكنها لم تلبث أن سُحبت منها وأسندت لوافد جاء حديثًا مع تأميم الصحيفة وتولِّي محمد حسنين هيكل ذائع الصيت رئاسة تحريرها، وهو الذي كان يُعد المتحدث باسم جمال عبد الناصر. فهل تم تعيين دارس للآثار في ذلك المنصب بدلًا منها، لأن ذلك يتفق مع اسم الجريدة: «الأهرام»؟!

إنه لم يكن حتى صحفيًّا محترفًا. لقد كان في واقع الأمر شريكًا في تأسيس مهرجان القاهرة السينمائي الدولي. فجأة انتشرت في المكاتب نساء يشبهن عارضات الأزياء، بعضهن يصبغن شعورهن بلون أخضر، ويتبادلن القفشات والنكات مع زملائهن المحررين الرجال. لم تعد معايير الاختيار للعمل في الجريدة تقوم على الكفاءة أو التخصص. فحين عادت «هي» من رحلة إنجلترا الطويلة وجدت أن كل شيء هناك قد تغير. لقد تدهورت صحة أمها وأحوالها، وطمست كميات العقاقير الهائلة التي صارت تتناولها على عقلها ووجدانها. وأصبحت تسمعها تشكو مرارًا من أن تلك الأقراص قد «جبَّست» مخها.

لا بد أن الأمر كان قاسيًا على امرأة شابة طموح وناجحة: أن تُستبدل برجل متخصص في «الأنتيكات»، يراها مخلوقة غريبة الأطوار لأنها ترفض أن تكون عديمة الجدوى، بينما تراه ابنتها شخصًا «عجيبًا» هو نفسه، برأسه الذي بدأ يصلعُ، وبقايا شعره الكانيش المفلفل تتدلى حتى تكاد أن تلمس كتفيه، بينما يتبختر بقامته الطويلة مثل ديك يتولى أمور مملكته بين رعاياه من الدجاجات التافهات الموقوفات. لقد وجدت أمها نفسها فجأة وقد انحدرت إلى عمل ممل كئيب في القسم الخارجي؛ إذ أوكلت إليها ترجمة شريط الأخبار، الذي يخرج كل دقيقة من جهاز «التيكرز» قادمًا من الوكالات، وما تجود به «رويترز» عليهم من أنباء. ولم يكن ذلك يرقى قَطُّ إلى اقتناص النبأ من مصدره المباشر، والانطلاق من أسْر جدران المكتب، مهما بلغ اتساعه، إلى المنبع الإخباري في الهواء الطلق؛ هنالك حيث المرفأ الطبيعي للمحرر المجرِّب المتدرب. ولكن للأسف، صار إرضاء الرؤساء أهم وأجدى من امتلاك مقومات الاحتراف.

كل هذا حدث بينما كانت ابنتها في إنجلترا لا تزال، لم يخبرها أحد بانهيار أمها. إلا أنها لاحظت أمارات ذلك التدهور حتى بعد تجاوز أمها الأزمة. ولقد احتاج منها الأمر إلى زمن طويل وكثير من القراءة وتراكم الخبرة لكي تفهم حقيقة ما حدث لأمها. الآن يتضح لها أن طبيب أمها كان له دور في ذلك التدهور. فلسبب أو آخر، بدلًا من تشجيعها، كان يثبطها ويثير خوفها من الارتباط برجل، على الرغم من أنها كانت ما زالت شابة ومحاطة بكثير من الخُطَّاب وطالبي الارتباط. ورفض أيضًا أن يبارك تلك اللحظات النادرة التي أتيحت للأم والابنة لكي ينفتحا ويتكاشفا إحداهما تجاه الأخرى، كما لو كان يتعمد أن تظل منعزلة. ففي وقتها، لم تكن «هي» تفهم ما سِر الخلل، ولماذا تحس أحيانًا أن أمها تخنقها. فلقد كانت الأم تُسقِط خيبات فشلها المهني على ابنتها التي كانت تحاول بمشقة شق طريقها هي الأخرى في عالم التمثيل. إلا أن هناك اختلافًا كبيرًا بين حاليهما. فالابنة كانت تحيا قصة حب جميلة، ولا تطلب من نفسها أكثر من أن تكون نفسها، وكذلك يتقبلها كما هي زوجها وأصدقاؤها، ولا تطمح إلى النجومية؛ فهي تشعر في أعماق نفسها بأنه في ذلك العصر الذي نحياه ربما كان من الفضائل ألا نكون ناجحين. كما أنها لم تعانِ يومًا من الضغوط المالية التي واجهتها الأم حين جاءت لاجئة مع أسرتها إلى مصر.

ومن مفارقات القدر الساخرة، أن طبيبها اعترف بفشله، واعتذر عن مواصلته تولي حالة أمها، لأنه صار لا يتحمل ألم أن يراها وقد صارت بهذا الضعف والعجز، فحوَّلها إلى طبيب آخر لديه مستشفاه الخاص ويمارس الصرعة الجديدة في الطب النفسي: العلاج الجماعي. كانت أمها آنذاك في عقدها السادس، لكنها تبدو أكبر من سنها. كانت تصحبها إلى الجلسات، منتظرة إياها في الخارج، على أمل أن تتحسن، ثم تأخذها إلى مطعم فاخر لتتناقشا معًا حول تقدمها في العلاج. وكانت المرأة المسكينة مرتبكة مذهولة مما ترى، وتشكو لها مقدار ما تشعر به من عذاب وهي تستمع إلى عذابات الآخرين. وكانت الابنة تحاول عبثًا أن تخفف من ألم أمها، فكسر ذلك الإخفاق قلبها! ولقد تذكرت، بعد وفاة أمها بزمن طويل، ما ذكرته الأخيرة يومًا ببراءة حول ملفها الطبي الذي كان في الأصل لدى طبيب يهودي، حوَّله، حين اضطر إلى مغادرة مصر بعد ثورة ١٩٥٢، إلى من صار طبيبها بعد ذلك. ولم تملك إلا أن تتساءل حول مدى تعصب وانحياز ذلك الطبيب القبطي البروتستانتي، الذي كان يسافر إلى أمريكا كل عام ليحضر تجمعات العائلة.

وكانت أمها أقرب منها إلى فلسطين، فقد تركت وطنها وهي في سن المراهقة، بينما ابنتها ما زالت صغيرة. ولم تتحدثا قَطُّ فيما بينهما عن الوطن، على عكس العائلات الأخرى، التي آثرت أن تبقى التقاليد والذكريات حية في وجدان الأجيال التالية. غير أن تلك الابنة كانت دومًا تجد من يذكرها بأصولها، وبمسقط رأسها: حيفا. كان زوجها يُذكِّرها، وكذلك الغرباء، بينما كانت «هي» تحس أنها قادمة من كوكب آخر! وبعد ذلك بسنين، رحبت الجريدة بدفع تكاليف الإقامات المتكررة لأمها في المصحة النفسية، بينما دفعت على مضضٍ تكاليف رحلة شاعرها العلاجية إلى هيوستن

لإجراء جراحة في القلب. وتذكرت أيضًا ما نصحها به الطبيب البروتستانتي من عدم مقاضاة المستشفى على ما بدر منه من إهمال. وقد تفاجأت بتلك النصيحة، لأنها لم تفكر أصلًا في مقاضاة أحد.

كان الوحيد الذي يقرأها جيدًا هو شاعرها. وكان يعامل حماته بتعاطف حقيقي و«شياكة». وعندما أصبحت هي أمًّا، سألتها ابنتها عما حدث للجدة، وعن طبيعة المتاعب النفسية التي عانت منها. ولم تدرك، إلا بعد فوات وقت طويل على ذلك السؤال والخرس الذي أعجزها عن إجابته إجابة شافية، أن تلك الأم كانت ضحية للظروف؛ فقد عجزت عن التصالح مع واقعها القاسي، وإزاءه ذهبت سُدى كل أوراق اعتمادها الأكاديمية. وكل تلك التشدقات الطبية التي وصفتها بأنها «حالة فصام» لم تكن إلا هراء. ففي زياراتها للجريدة، لصرف مستحقات الأم، كان الزملاء، وحتى عمَّال المطبعة الذين تقابلهم، يحتفظون بذكرى طيبة حنون عن أمها: كرمها وتعاونها مع الأجيال الشابة في القسم الخارجي بالجريدة حيث كانت تعمل. وعندما حاولت «هي» دفع إكرامية لأحد العمال رفض بإصرار قائلًا إن أمها ـ رحمها الله ـ أعطته في حياتها ما فيه الكفاية ويزيد. لقد كانت تلك الأم ـ كما أشرنا ـ مجموعة من الظروف سيئة الطالع. أولًا فرت من العائلة لتتزوج الرجل الخطأ، لكنها رممت روحها بالإصرار على إنجاز دراستها الجامعية، وبأحلام تحرير المرأة وحقها في التصويت. ثم أُعتقِل كل أصدقائها لأسباب سياسية، واختُطفت ابنتها ـ أو كادت ـ على يد طليقها، وفوق ذلك، على الرغم من استمرارها في الوظيفة، فقد فقدت مستقبلها المهني. لقد ارتكبت ـ بالصدفة ـ عدة آثام: فهي امرأة، وهي مثقفة، وهي كاثوليكية الديانة، وفلسطينية، ويسارية الهوى بتعاطفها مع الشيوعيين المصريين، في عالم ما زال يفضل أن تكون المرأة بلا عقل.

وعندما عادت ابنتها من إنجلترا، وجدت تلك الابنة في انتظارها صورًا فوتوغرافية لحفل أقيم ابتهاجًا بتعافي الأم من نوبة مرضية. وقد حضر الحفل رئيس الأم في العمل. وظهرت في الصور أطباق الطعام الفاخر الذي أعدته الجدة. كما غنى في الحفل مطرب شهير لتسلية كبار الضيوف. وهي تتأمل تلك اللقطات الفوتوغرافية، لم ترَ الصورة كاملة. لم تكتمل الصورة إلا بعد الحل الكامل، وامتلاء كل خانات مربع الكلمات المتقاطعة. فرئيسها في العمل ذاك، بسيجاره الكوبي وتعليقاته الجارحة، انضم لكورس الرافضين لزواج شاعرها منها، لأنها في نظره دون المستوى. ولو كانت قد علمت بذلك في حينه، لما كلفت نفسها مذلة الدق على بابه، بعد تقاعده، طالبة منه أن يكتب مقدمة لكتاب الذكريات الذي دوَّنه قلمها بعد وفاة زوجها. لقد نظر إليها بتعجرف، ونصها ضئيل الحجم في يديه الكبيرتين، قائلًا إن أحدًا لم يكتب عن زوجها من قبل، ومشترطًا عليها توسيع المادة المقدَّمة ـ كما لو كان كتابها مسلسلًا تلفزيونيًّا يراد مَد ساعاته، حتى لو أدى ذلك إلى الإطناب والملل ـ حتى يتنازل فيكتب تلك المقدمة!

معظم الناس يعيشون ويموتون دون أن يفهموا تمامًا ما حدث لهم، وأحيانًا لا يريدون حتى أن

يعرفوا، ويشعرون براحة أكبر مع الجراح المألوفة. فهم لا يملكون شجاعة خوض رحلة الألم، غير مدركين مدى أثرها المحرر لأرواحهم. لقد كانت حقًّا رحلة مليئة بالوحدة، نحو صليبها الخاص، بلا تاج، ولا حتى تاج شوك، ولا زحام من الناس، بل بلا أي صحبة.

مع الأم جاكلين خوري في المنزل بشارع شريف عام ١٩٦٢

كان قلبها مثلجًا من الخوف والخشية. لم يتحسن جوُّها الروحي في الصبا إلا لوهلة عابرة، حين قابلت ذلك الدارس الجيولوجي الذي كان عمره يناهز السادسة والعشرين، وكان عمله في الصحراء. وتقابلا مرة أخرى في إجازة صيف في إيطاليا، ثم مرة ثالثة في زيارة منها لأمها في مصر. إلا أنهما ما لبثا أن أنهيا العلاقة فجأة؛ كانا يجلسان على العشب الأخضر، حين قابل بعنف شيئًا بسيطًا فعلته، فألقى مذياعها الترانزستور على الأرض حين أدارته هي على البرنامج الموسيقي، معتبرًا إياه واحدًا من شرور العالم الحديث. كان يفضل موسيقى الصمت في الصحراء، تحت قمر السودان، كما أنه اتهمها بأنها طفلة مدللة حين أعلنت غضبها لأن الآيس كريم الذي جاءها به لم يكن بالمذاق الذي طلبته! كم جانبه الصواب؛ لقد كانت طفلة تتعذب.

وفي إنجلترا، كانت تراسل فتى بريطانيًّا كانت قد قابلته خلال رحلة مدرسية للنمسا أثناء موسم التزلج على الجليد. كان يكتب لمجلة اسمها «الفوضوي»؛ وكان شاعرًا ورسَّامًا. كانت المرة الأولى التي سمعت فيها عن ذلك المصطلح السياسي: الفوضوية أو الأناركية، وتعني عالمًا بلا حكومات. وقد تطلَّب الأمر وقتًا لكي تستوعب ما كان يقوله ذلك الصديق. وعلى النقيض من عشب إيطاليا الأخضر، كانا ينزلقان معًا على الجليد، في وقت متأخر من الليل، حين توقف هو فجأة قائلًا لها إنها شعلة ضوء تتوهج عند خط الأفق المظلم.

أثَّرت فيها مجاملته، لكنها أرسلت خطابًا لوالدتها فيه حيرة وارتباك. فذلك الود كان لطيفًا منه لكنها لم تقع في غرامه. وفي ذلك الخطاب سألت سؤالها الشهير، الذي كان دائمًا ما يذكرها به على سبيل الدعابة، زميل والدتها (وعاشق تلك الأم من جانب واحد): «ما الحب؟». وبعد رحيل الأم ومن بعده رحيل شاعرها، سيظل ذلك الصديق يذكرها بذلك السؤال كلما جاء لزيارتها بعد أن تقاعدا معًا.

أنهت علاقتها بذلك الفتى البريطاني بسبب حلم وصفه! كانت قد تلقت خطابًا منه بعد عطلة الكريسماس، وكانت قد عادت إلى مدرستها، وقال هو في خطابه إنه رآها في حلم، وكان جسدها كله مغطى بعملات من فئة الشلن. لقد صدمها بذلك الحلم الغريب. كانت مدرسته أقل شأنًا من مدرستها، لكنها لم تعبأ بذلك أو حتى تلاحظه؛ ذلك الفارق بين مدرسة تتحمل نفقاتها الحكومة وأخرى تحتاج إلى مصاريف عالية يتحملها الأهل. لم تهتم، على الرغم من أن الجَرَّاح الذي أجرى العملية لوالدها، وكان يتولى شؤونها في إنجلترا، كان قد لفت نظرها إلى أنه إذا دعاها صاحبها ـ في موعدهما الأول ـ للقاء في ماكدونالدز فإن ذلك معناه أنه اجتماعيًّا أدنى منها مرتبة. بل إنه حتى وجد لها فتى أنيقًا من مستواها يدعوها إلى السينما حين لاحظ انشغالها بذلك الولد الفوضوي الذي كان والده طيارًا حربيًّا في الحرب العالمية الثانية ومات محترقًا بطائرته في إحدى المهام العسكرية.

كان راعيها رجلًا طيبًا، ولكن كانت له انحيازاته الطبقية. لقد نظر نحوها بفتور وازدراء حين

رآها تقرأ كتاب جورج برنارد شو «دليل المرأة الذكية للاشتراكية»، وكان يحوي بعض النصائح والاقتراحات لربات البيوت حول تدبير نفقات بيوتهن! كانت تحب حس شو الفكاهي، ذلك كل ما في الأمر! ومرة سألت ذلك الطبيب بسذاجة سؤالًا انفجر ضاحكًا إزاءه: ما يحيِّرها اسم «Middlesex»، وتقرأه حرفيًّا: «جنس متوسط»، فسألته عن معنى ذلك، فأجابها أنه مجرد اسم بلا معنى خاص، اسم مقاطعة، مثل: «Sussex» و«Essex». وحين دعاها صاحبها الشاب إلى مطعم شعبي، لم تعبأ بذلك، فقد كانت تستمتع بصحبته في أي مكان، لكنها، بعد ذلك الحلم، أرسلت إليه خطابًا غاضبًا للغاية، دون أن تدري سببًا لذلك الغضب!

ثم في أحد الأيام بعد ذلك بكثير قابلها شاعرها في وسط البلد وكان يبدو عليه غضب هائل: لماذا لم تخبره أن أباها من الأثرياء؟ كان ردها ببساطة أن الأمر أتفه من أن يُذكر. فقال: «إنهم سيحاربون وجودنا معًا بشراسة أكبر». وقد مس عواطفها ما قاله، وما لمسته فيه من خصلة جميلة إضافية: إنه لم يعبأ بكون والدها غنيًّا، بل بتأثير ذلك سلبيًّا على «وجودهما معًا»! على «اتحادهما».

في كل الأحوال، لم يكن أحد يوافق على ذلك الزواج، مع اختلاف أسباب الرفض. فقد أمطرتها جدتها بصيحات الاحتجاج لأنها كانت مقبلة على الزواج برجل ينتمي إلى دين مختلف، أما أمها فقد خاطبت ضميرها: ألا تهدم أسرة بزواجها من رجل متزوج. وذات يوم، وكانت تلك المرة الأولى، قابلته في كافتيريا تطل على النيل، وكانت تضع طلاء برتقاليًّا لشفتيها، وقالت له إنهما يجب أن يفترقا. فأجابها بأنه «قرار لا ينبع من قلبها، بل أصدره المجتمع عبر ذلك الطلاء البرتقالي لشفتيها!». كان قد انفصل عن زوجته، وأخته تحاول أن تعيدهما معًا، لأن لديهما طفلين بريئين. وكانت حجة أمها في الجدل الجاري حول الأمر أن الفارق في السن بينهما كبير: نحو أربعة عشر عامًا؛ وهو فارق لم تشعر هي به قَطُّ بالطبع. وكانت كلتاهما ـ أمها وأخته ـ تتحدثان بصوت واحد وهما تعيدان مرارًا وتكرارًا الحجج التي تثبت الفشل الأكيد لهذا الزواج. وكان مهماز الشعور بالذنب، الذي كان أقوى ساعتها من كل مشاعرها نحوه، هو الذي حثها لأن تقرر أن الفراق هو الخيار الأفضل، ويصب في مصلحة كل الأطراف. حدَّق فيها بعينيه الكبيرتين، اللتين كانت تعشقهما، وقال بهدوء إنه سيطلق في كل الأحوال، وبصرف النظر عن زواجهما من عدمه.

كانت غريقة في بحر الغرام، ومشاعرها الجديدة نحوه كانت قد محت كل العنف العاطفي الذي ارتُكب ضدها سواء عن عمدٍ أو بغير عمدٍ في سنوات صباها الأولى، التي لم تكن لها فيها بيئة حاضنة مستقرة أو يمكن التنبؤ بأحداثها. واستمر ذلك الشفاء العاطفي حتى هاجمتها ذكريات الطفولة مرة أخرى بعد رحيله. بدا الأمر وكأنه كان يحميها من كل آثار الماضي السلبية؛ وقد علمها أن تتذوق متعة أن يكون المرء حيًّا. إلا أنها كانت تعلم مدى قسوة أن يكون المرء طفلًا لزوجين مطلقين، ولم تتوقف يومًا عن الشعور بالذنب لكونها تسببت في انكسار قلبٍ ما، وفي

حرمان أطفال من العيش تحت سقف بيت يضم الوالدين معًا.

إن موته قد فتَّح من جديد جراحًا قديمة كانت قد التأمت. لقد كان يحميها داخل ذلك الغلاف العذب من العيش المشترك، بينما يجلسان معًا على قمة العالم، وعيونهما ملتصقة بتلك الخريطة الشهيرة التي كانت تثير حس الدعابة لدى الأصدقاء والمعارف، حين يعرضانها عليهم ويريانهم تلك المنمنمات من الورق المقوَّى التي تمثل قطع الأثاث من كراسي وطاولات. لم يكونا يفكران في القيمة المادية للشقة، بل في أهمية مغزاها الرمزي: لقد كانت مشروع عش الأحلام! كان عليهما أن ينتظرا أربعة أعوام على الأقل، أي حتى تخرجها، حتى يتأكدا من صدق رغبتهما في الارتباط. كان ذلك فرمان أمها وأخته، اللتين أصرت كلتاهما على عدم الترحيب بمشروع ارتباطهما، وصارتا تراهنان على أن عامل الوقت قد يطفئ جذوة الغرام المشتعل. لكن الوقت فعل العكس، فقد أجج الشعلة. إن الهدم أسهل من البناء؛ بين العشاق كما هو بين الأمم. والبقاء معًا، سواء في الأوقات السيئة أو حتى الحلوة، كان دائمًا تحديًا صعبًا حتى لأكثر الأزواج تحابًّا؛ وهي حقيقة مجربة منذ مبدأ الزمان. وهما أيضًا، مثل أي زوج من العشاق، نالا نصيبهما من أسباب الفراق، ومن الظل المهدد لشبح الطلاق، ولكنهما ـ بمعجزة ـ صمدا في وجه التجربة، والأثر المدمر للزمن!

كان أول تهديد لعلاقتهما الزوجية ما حدث بعد إجرائها جراحة تجميل لأنفها للعب دور البطولة أثناء إنتاج فيلمهما الأول. ففي ذلك المجال الفني يأتي تحقيق الذات من خلال الآخرين لا من خلال الجهد الفردي. فكان عليها أن يكون مظهرها مرضيًا للآخرين. لكنها كانت، مثل سيرانو، فخورة بالشكل الذي خلقها الله عليه، بكل عيوبه. لم تكن متوافقة مع زمنها؛ كانت فاقدة الصلة بما حولها، وكذلك كان شاعرها. كان عليه أن يسافر إلى موسكو لمداواة جراحه النفسية. لقد سحقته عجلات الآلة التي اسمها شباك التذاكر، و«متطلباتها» التي تفرضها معايير النجاح طبقًا لطاقم العمل المكوَّن من مجموعة من السطحيين المستبدين، مما تطلب منه أن يعيد كتابة سيناريو الفيلم عدة مرات. وكذلك أرهقه الطريق المسدود وأزمة الكراهية المتبادلة بين زوجته، مشروع النجمة السينمائية، وبين مخرج العمل الطاغية الجهول، والذي كان سِجِل أعماله السابقة قد أرضى الجماهير. لقد لحقت بشاعرها في موسكو، حيث وجدت بالصدفة محبوبته القديمة، التي طالما طاردتهما بمكالمتها التلفونية اللحوح في سنوات زواجهما الأولى. ومن المحتمل أنها قد سمعت نبأ قدومه لروسيا للاستشفاء. وقد حدث ـ مؤقتًا ـ شيء غريب: لقد فقد ذاكرته اللغوية، نَسي اللغات كلها ـ لكنه استردها بعد فترة قصيرة. كانت تذهب إلى زوجها في المستشفى، أثناء تلك الفترة، مشيًا على الأقدام خلال الثلج يوميًّا غير واعية ببرد الصقيع، ومستغرقة في تفكير عميق. تذهب لتقف بجوار سريره. كانوا يظنون هناك أنها «مترجمته» (بالروسية: «بريفوتشيك») التي من خلالها يتواصل مع الأطباء الروس. وحين بدأ يتحسن، نظرت إليه بحزن وقالت: «أنت الآن في

أيد أمينة. الآن يمكننا أن نفترق. أنا على يقين أنك تعلم بوجود عشيقتك القديمة الآن في موسكو. يبدو أنها لم تستطع نسيانك. وربما ستُعنى بك أفضل مني». احتضن راحتها في يده، وطلب منها تأجيل القرار لمدة عام.

أما التهديد الثاني فكان أخطر، وحدث قرب نهاية سنوات زواجهما. لم تكن قد أنجبت بعد، وكانت تفكر في أن تهب ثروتها، بعد وفاتها، لأبنائه، وتسجِّل ذلك في وصية. نظر «هو» نحوها في قلق، ثم كشف لها عن سر إعادته أم أبنائه لعصمته، على الورق فقط، وذلك لكي تتمكن بعد وفاته من الانتفاع بما تدره أعماله من حقوق الأداء العلني. لكم صُدمت «هي» وذُهلت. كيف سمح لنفسه أن يُخفي عنها قرارًا بهذه الأهمية، بحيث لا تكتشفه إلا بعد رحيله. وكيف كان رد فعلها سيكون في تلك الحالة؟! لقد كانا دائمًا صريحين فيما بينهما، ولم تناقشه قَطُّ في مقدار ما ينفقه على البيت الآخر! وعلى الرغم من أنها مسلمة الآن، فإن تربيتها الكاثوليكية ترغمها على النظر إلى تعدد الأزواج أو الزوجات على أنه جريمة وإثم! كانت في قمة الغضب. فالكل، عداها، كانوا يعلمون بالأمر. وذلك كان السبب في نظرات الأبناء الغريبة نحوها، والتي لمحت فيها بعض الشفقة. لم تتحمل الأمر، وطالبت بالطلاق فورًا. أما زملاؤها بمعهد الفنون المسرحية، فقد شعروا بأن صرحًا هامًّا على وشك السقوط. ولذلك تدخلوا لتهدئتها وطلبوا منه هو الخروج معهم في نزهة عادوا منها ـ وقد ناقشوا معه الأمر ـ يؤكدون لها أنه يحبها كثيرًا، وأنه كان قد انتابه الهلع حين سقط خاتم زواجه بها من إصبعه وهو في أحد البارات، فتشاءم وعد ذلك فألًا سيئًا. كانا معًا مشدودين في مجال جاذبية قطب مغناطيسي يفصلهما ثم يعيدهما الواحد قرب الآخر في دوران لا ينتهي. ومن جديد كانت عروس إلهامه. فقد كتب مسلسلًا تلفزيونيًّا منفصل الحلقات، وكان موضوع إحدى حلقاته اكتشاف زوجة ما بعد وفاة زوجها وجود أرملة أخرى لذلك الزوج. وكرد فعل هستيري، أحرقت تلك الزوجة المخدوعة كل كتب زوجها الراحل، وقذفت بكل ملابسه من النافذة، بعد أن قررت أنها ستبدأ حياة جديدة.

أما أخته فكانت امرأة استثنائية. كان هو دائم الشكوى من «تسلطها»، ملقبًا إياها بـ«زعيمة القبيلة». أما «هي» فلم تعرف أخته حق المعرفة إلا بعد وفاته. وعلى الرغم مما كان لديها من تحفظات إزاءها، كانت تلك الأخت عامل استقرار واتزان كلما فقدت «هي» السيطرة، تحت وطأة الحِمل الثقيل لتربية طفلة وحدها دون عون. وكان «هو» قد خلَّف برحيله مشكلة وراءه تخص ضرائب شركة إنتاج سينمائي تجمعه ملكيتها المشتركة مع نجمة سينمائية ومنتج. ولولا هذه الأخت، لكانت هي وابنتها ستبيعان كل ما تملكان، بما في ذلك الشقة (الحلم). وحين تعرضت «هي» لانهيار عصبي، أخذتها تلك الأخت إلى منزل الأسرة الريفي. ومن ذلك الوقت العصيب، «هي» بالكاد تتذكر: قيامهما برياضة الجري معًا في حديقة ذلك البيت، وتشجيع الأخرى لها على ذلك للتخلص من طاقة التوتر السلبية التي نجمت عن خسارتها الفادحة بفقدها لشاعرها. وبلغت تلك

الأخت من الكرم أن اقترحت عليها رحلة استشفائية إلى سويسرا والإقامة في بيت صديقة لها هناك. لقد غمرتها تلك الأخت بالرعاية، وباهتمام لم تشهده حتى مع والديها، على الرغم من قناعة تلك المرأة الراسخة أنه كان من الأفضل ألا تتزوج بأخيها، وهي قناعة ظلت ثابتة لا تتزحزح حتى بعد وفاته. وقد ساعدتها أخته أيضًا في اختيار مدرسة ذات نفقات معقولة لابنتها، وأخذت الطفلة في فترة الإجازة في رحلة إلى موسكو. أما «هي» فقد رفضت السفر إلى سويسرا أو روسيا، فقد عاد خوفها المكبوت القديم من السفر بعنف أشد. ولم تكن هي حتى تعي وجود ذلك الخوف وتلك الخشية. ووصل الأمر إلى حد إصابتها بحالة هلع حين دعتها تلك الأخت إلى فنجان قهوة في كافتيريا أحد فنادق القاهرة؛ في مدينتها لا في الخارج! وفي مناسبة أخرى، تخيلت أن أخت زوجها تخطط لإيذائها. وقد كسر ذلك الظن قلب الأخت، ولم تستطع قَطُّ فهم ردود فعلها تلك الغريبة.

كانت أفكار سيضعها فورًا أي طبيب نفسي في مصطلح يضمها كقميص كتَّافي: «جنون الاضطهاد» أو البارانويا. وحين قارنت بينها وبين عمتها هي، التي كانت رافضة هي الأخرى، ولكن رفضها كان لعودتها إلى حضن والدها، أشعرتها المقارنة بالفارق الكبير. كلتاهما كانتا منحازتين ضدها؛ ولكن أخت شاعرها كانت حنونًا.

أول أبيات شعرية حفظتها بالعربية كانت تصف الحياة كرحى تدور ساحقة بين حجريها الضعفاء:

إنَّ الحَياةَ صِراعٌ	فِيها الضَّعيفُ يُداس
ما فازَ في ماضِغَيها	إلا شَديدُ المِراس

فالصراع النفسي المفرط يمتص طاقتك ويغتصبها اغتصابًا، ويُنهك وينتهك إمكاناتك وقدراتك المبدعة المنتجة، تاركًا إياك تحت رحمة علماء يكبلونك بتسمياتهم وتصنيفاتهم أو يخنقونك بعقاقير تخدر عقلك وتُغَبِّش ذاكرتك.

لا تستطيع «هي» أن تحدد أي الصراعات كان الأشد إيلامًا لها. هل كان النزاع بين والديها حول من منهما الأحق بأن تعيش معه؟ أم تلك اللحظة التي كان عليها فيها أن تحسم أمرها: هل تترك طفلتها مع عمتها وتسافر مع زوجها إلى هيوستن بولاية تكساس الأمريكية حيث سيُجري جراحة القلب، أم تبقى معها؟ كان عمر ابنتها آنذاك سنة واحدة، وكانت فكرة الافتراق عنها موجعة. وفي الوقت نفسه، كان زوجها يحتاج إليها، وقد لاحظت توترًا في علاقته مع أخته التي تطوعت بأن تسافر معه. اختارت في النهاية أن تكون بجانبه، وعاشت من جديد مجابَهةَ الخطرِ وحدها وجهًا لوجه، كما حدث لها من قبل حين كانت صغيرة وحدها في إنجلترا مع أبيها الذي كان يُجري جراحة خطيرة؛ نفس القلق المصحوب بخوف فقدان حبيب قريب لك في أرض غريبة.

أثناء جلوسها في الردهة الخارجية لقسم العناية المركزة بالمستشفى، في انتظار أن يسمحوا لها بالدخول لإلقاء لمحة سريعة عليه بعد إجراء العملية، كانت تسترجع تلك الأيام الأولى لعلاقتهما التي كانت آمنة مطمئنة خالية من كل هم. بعد مرور عام على الزواج، قررت أن تدرس فن التمثيل في المعهد العالي للفنون المسرحية. وكان زملاؤها بذلك المعهد ينتمون لخلفية اجتماعية تختلف تمامًا عن تلك التي جاء منها زملاء الجامعة الأمريكية. الآن صارت على اتصال صميم بمصر، لا عالقة عند الحافة. فمعظم هؤلاء الزملاء الجدد أتوا من بيئة ريفية فقيرة. واحد منهم فقط كان خريجًا جامعيًّا مثلها ويصغرها بعام واحد. وقد قدمتهم جميعًا لزوجها، الذي كان يشعر بسعادة بينهم وكأنه تلميذ مثلهم، وكوَّن مع كل واحد منهم صداقة وطيدة صمدت إزاء الأيام. كانت فترة استعادت فيها روح المراهقة التي كانت قد فقدتها، أيام كانت حياتها محصورة في قيود الأديرة والمدارس الداخلية. كانوا معًا، يأكلون ويشربون ويغنون أغاني شعبية من التراث، وأخرى كتبها زوجها وكادت أن تكون تراثًا من فرط ما اشتهرت ورسخت في الوجدان. كم بدا لها ذلك المرح بعيدًا قصيًّا، وهي تنتظر حزينة دورها في دخول قسم العناية المركزة. كانت تكاد تسمع دقات قلبها وهو يخفق بعنف وهي ماثلة أمام الباب الضخم الذي يفصلها عنه.

كان طبيبه الأمريكي ينادونه بـ«الأستاذ»، ويبدو أنه كان لقبًا أعلى من «دكتور». كان صموتًا ونافد الصبر إزاء أي سؤال يوجَّه إليه. وفي اليوم الذي كان من المفترض أن يغادر فيه المستشفى، وقف زوجها أمام المرآة يقفل أزرار قميصه، فانبثقت من صدره نافورة من الصديد. لقد تلوث جرحه، وكان عليهما البقاء في المستشفى، وأن تتدرب هي على كيفية تنظيف الجرح، لأن المستشفى لم يكن به العدد الكافي من الممرضات. كان الجرح عميقًا ومخيفًا، لكنها استجمعت شجاعتها لتواظب على تنظيفه بانتظام، حتى بعد مغادرتهما، في فترة نقاهته التي سكنا خلالها قريبًا من المستشفى. وعلى الرغم من أن الجو كان شتويًّا، كانت تتعرق بشدة ويغمر العرق وجهها كأنها تحت شمس حارقة، وهي تنظف هذا الجرح الرهيب.

كان ذلك الموسم من العام، هو أوان الكريسماس واحتفالات العام الجديد. وكان في ذاكرتها الثاني في الترتيب من حيث شدة البؤس والكآبة. الكريسماس الوحيد الأتعس منه «احتفلت» به في صحبة أبيها في السودان، حين كان عليها الامتثال لقراره بحرمانها من رؤية أمها إلى الأبد. كان هذا المستشفى ضخمًا ومجردًا من الروح الإنسانية، مقارنة بالذي أجرى فيه والدها جراحته في لندن، حيث كانت الممرضات أكثر دفئًا وكرم ضيافة. هنا كان الجميع منشغلين عنك، وفقط إن كنت تعرف الإنجليزية لديك فرصة الحصول على المعلومات المطلوبة الخاصة بالمستشفى من الكتيبات المتاحة هناك.

قابلتْ هناك بالصدفة مرضى من أمريكا اللاتينية كانوا يجهلون حتى وجود مطعم بأحد الأدوار العديدة لذلك المستشفى. وقد أرشدتهم هي إليه، عملًا بالقواعد التي تعلمتها بمدرستها الداخلية

الإنجليزية الخاصة بقدوم وافد جديد. إنها لم تعد تتذكر كل أسماء الملوك والملكات الذين حكموا إنجلترا؛ أو جغرافيا الجزر البريطانية؛ أو التفاصيل التي كان عليها أن تحفظها في علوم الفيزياء والكيمياء. إلا أنها ما زالت تحتفظ بمَلَكة الدقة والانضباط التي تكوَّنت لديها هناك. فقد كانت الالتزامات المتدرجة في حجمها، التي كانت تكلِّف بها تلك المَدرسة التلاميذ، قد نمَّت لديها حاسة الشعور بالمسؤولية والتحفظ الدقيق مقدمًا لمواجهة أي خطر محتمل. لكنها كانت أيضًا تضمر حنينًا لأفلام السينما التاريخية، حيث القصور ومؤامرات البلاط، وأحداثها التي تدور في فرنسا وإنجلترا. ولكن كان من الصعب العثور على مثل تلك الأفلام، وسط ركام أفلام الحركة الأمريكية، والأمريكان البيض في حروبهم مع الهنود الحمر، أو في حربهم الأهلية، وغزواتهم الدؤوب لتوسيع حدود عالمهم الجديد. كما كانت تهزها أغاني الحنين إلى الوطن الأم، والتي كانت تتردد أنغامها بوجدانها في الأوقات الصعبة؛ وبالذات لحن «الكندي الشارد»، الذي كُتبت كلماته بالفرنسية: «كنديٌّ ضل ونُفي عن وطنه يتطلع نحو...»، نحو ماذا؟ لا تستطيع التذكر. وكتب إنريكو ماسياس وهو يفارق الجزائر أغنية وداع بالفرنسية، يقول فيها ما معناه: «وداعًا يا بلدي. يا وطني الضائع». لم تكن الجنسية ذات بال في هذه الأحوال، فقد كانت تلك الأغاني تمسها في الصميم.

بينما كانت تشعر بأنها غريقة في البحور العميقة الفاصلة بين القارات، كانت في أقصى الاحتياج إلى قارب نجاة. هل كان شاعرها ذلك القارب، الذي أنقذ حياتها وهي تتخبط في البحور؟ لولاه لظلت «أجنبية محلية»؛ خريجة من الجامعة الأمريكية بلا جذور في الأرض. وإصراره أن يكون لهما طفل، في وجه مقاومتها هي الشديدة، أنقذ مستقبلها، في حياة بدونه. لقد عاش ست سنوات بعد إجرائه الجراحة، وعاد إلى القاهرة بعد تلك العملية الجراحية بشهرين. وكانت، وهي تتطلع إلى السحب من نافذة الطائرة، تتحرق شوقًا لاحتضان طفلتها، بينما كانت يدها تنام في يده، وكأنها كانت باحتضان يده تسعى للتأكد أنه لا يزال هنا، مثل تلك السحب ولكن أقرب، وأكثر كثافة؛ ليس خفيًّا لا يكاد يُرى مثل ذلك الهواء وتلك اللانهاية المنبسطة تحتها وحولها.

كانت مفاجأة غير سارة في انتظارها، حين حطت بهما الطائرة أخيرًا في القاهرة. فبعد أن أوصلته إلى البيت، تاركة إياه في صحبة شلة الأصدقاء، قادت سيارتها نحو بيت أخته لتعود بابنتها. بمجرد أن انفتح الباب، اندفعت داخله تبحث عنها، لكن الطفلة حدَّقت فيها طويلًا ورفضت أن تحتضنها. وحين ذكَّرتها «هي» بأنها «ماما»، وركعت أمامها مسدلة شعرها الذي كانت ترفعه في «ذيل حصان»، آملة أن الطفلة ساعتها ستتعرف عليها، باءت كل محاولاتها بالفشل. سالت دمعة على خدها، وهي تستمع إلى مواساة الأخت وكلماتها المهوِّنة للصدمة، وكأن تلك الكلمات آتية من بعيد؛ من الفضاء الخارجي. في تلك اللحظة، لمحت طفولتها في ومضة استرجاع للماضي: حين رأت والدها لأول مرة؛ لم تكن رضيعة كابنتها الآن، بل على أعتاب المراهقة، في الثالثة عشرة من عمرها. في ذلك المشهد المسترجع، لمحت نفسها في الحجرة تقيس زيها المدرسي

الجديد. كانت جارتها الإيطالية قد رحلت، وكانت هي تريد الذهاب إلى مدرسة جارتها اليونانية الجديدة. ساعتها سمعت جدتها تناديها بصوت عذب أن تأتي لتقابل والدها. وكانت قد شاهدت فيلمًا لفريد إستير بعنوان: «بابا.. أبو السيقان الطويلة» (Daddy Long Legs)، فتصورت أباها مثلها، أو هي مثله، بما أن أمها كانت أقصر منها بكثير. اندفعت نحو حجرة الجلوس وتوقفت عند أعتابها، وقد استولى عليها التهيُّب والخشية. كان فارع الطول، وله أنف طويل مثلها، ربما أطول قليلًا، مثل سيرانو دي برجراك. كان ينتعل جزمة أبيض في بُني، مثل فريد إستير، ويرتدي بدلة لونها بيج. لقد أبَت أن تتحرك نحوه ـ تاركة عتبة الحجرة ـ لتُسلِّم عليه. وكانت أمها تشجعها على تحيته بقولها إنه يتحدث الإيطالية. وابتسم هو، ونطق بعض كلمات بالإيطالية. وخفق قلبها عند قوله إنه يمكن أن يأخذها يومًا لإيطاليا لتزور صديقة عمرها التي هاجرت حديثًا مع أهلها إلى روما. لم تستطع بعد ذلك أن تقاومه، واندفعت إلى حضنه وقبلته في خده، متغلبة على خجلها الهائل.

أمَّا ابنتها هي، فقد تطلب الأمر وقتًا لكي تعود إلى أحضانها، وقتًا لم يكن طويلًا في الواقع، لكنه بدا وكأنه أبدية. وقد شكرت «هي» أخته. فمن الواضح أنها اعتنت جيدًا بابنتها، خلال شهرَي الغياب، إلى درجة أن الطفلة نسيت ـ ولو وقتيًّا ـ أمها.

وكانت هي تريد أن تُربِّي ابنتها بمنأى عن الروادع الاجتماعية والنفسية للمجتمعات الشرقية؛ وأن تتيح لها من الحرية أقصى ما تطيق، في عالم صار يبيح الحريات كلها للجميع، عدا الحرية الاقتصادية. لقد صارت القوانين والقواعد تُسَن لكي يتمكن أصحاب رأس المال الضخم من اعتصار كل ما يمكنهم سلبه من الطبقات الوسطى والدنيا، مُبقين إياهم بالكاد على حد الكفاف لكي يظلوا على قيد الحياة، فتزدهر السياسات الرأسمالية وتتعملق المؤسسات العابرة للجنسيات، وتتراكم أرباحها ويمتد نفوذها كأذرع الأخطبوط حول العالم.

استطاعت، كأم، أن تستغل كل إمكاناتها وقواها؛ على عكس أدائها في كل مساعي الحياة الأخرى. لقد نجحت في المجال الذي كانت ترهبه أكثر ما ترهب. استفادت من كل تجاربها الشخصية، مضافًا إليها كل ما استطاعت أن تتعلمه من الكتب في مجال التربية. كانت الخطوة الأهم أن تنقذ ابنتها من مصير أبناء المشاهير. فقد أراد أحد منتجي السينما أن تظهر ابنتها في فيلم له وهي في الثالثة من عمرها. بعض الأمهات اللاتي كانت لهن طموحات في مجال التمثيل، يدفعن أطفالهن لتحقيق ما لم يحققن هن، فيتعرض أولئك الأطفال لضغوط هائلة، ويُطلب منهم الخضوع لانضباط مهني يتجاوز بمراحل قدرات أعمارهم ـ وهو أمر حرصت على أن تجنب ابنتها أخطاره.

أما القرار التالي لهذا في الأهمية، فقد اتخذته حين كانت ابنتها في السادسة، بُعَيد رحيل والدها. لقد شجعتها أخته على الانتقال من شقتها إلى منزل آخر هروبًا من الذكريات الأليمة لأيامه الأخيرة في بيتهما. لكنها أبت أن تترك البيت، الذي انتقلا إليه ـ هي وشاعرها ـ من بيتهما الصغير القديم، المكون من حجرة واحدة وصالة، آملَيْن أن يتسع المكان لضيوفه الكثيرين. وصارت ابنتهما

مرتبطة عاطفيًّا بذلك البيت وذلك الحي. وكانت لها هناك صديقة صدوق مقربة اسمها فاطمة، وكانت أم تلك الطفلة تشجع هذه الصداقة بينهما وتحثهما على أن تلعبا معًا، وتتشاركا في أنشطة فنية. وتذكرت «هي» أيام عودة جارتها الإيطالية إلى وطنها الأصلي بعد ثورة عبد الناصر في الخمسينيات، وكيف أحست حينها بشعور حارق بالفقد، ولم تجد من يواسيها. أما ابنتها فقد فقدت للتوِّ والدها، الذي كان يصحبها في الصباح المبكر إلى حيث تركب أتوبيس المدرسة، خاتمًا بذلك سهرته، ثم يذهب لينام بعد أن أمضى الليل بطوله يكتب الأشعار وسيناريوهات الأفلام.

وبعد رحيله كانت «هي» تترك البيت مع ابنتها كل صيف لتقضي ثلاثة أشهر بعيدًا عنه، وفي كل مرة تعود فيها لا تملك القدرة على مغالبة الشعور بالحزن لأن شاعرها لم يكن هناك في انتظارها.

وحين كبرت الطفلة وكوَّنت أسرتها الخاصة، انزوت «هي» في شقة صغيرة بضاحية بعيدة على أطراف القاهرة، وتركت شقة العمر لابنتهما التي عبَّرت عن رغبة البقاء في البيت الذي وُلدت فيه، ولاحقًا سمَّت طفلتها الأولى فاطمة (على اسم جارة الطفولة). وكان هذا قرارها - «هي»- الثاني السليم، الذي اتخذته غريزيًّا، بينما رأسها يرزح تحت ثقل العقاقير الطبية المغيِّبة، والتي لم يكن لها لزوم أصلًا.

لم تكن تمتلك بللورة مسحورة ترى فيها المستقبل. لكنها تزوجت شاعرها في النهاية، على الرغم من اعتراض أسرتها وأسرته، واستقرت بعدها في شقة أكبر في القاهرة. ولم يعقب قرانهما حفل عرس، لأنه تم في الجو الكئيب ليونيو ١٩٦٧ وهزيمة حرب الأيام الستة مع إسرائيل. وكان «هو» قد فقد الحماس لانتقالهما إلى شقة الأحلام في وسط البلد القاهري، التي تأخر تشطيبها لأن مشروعها كان يتبع الجيش. وكثيرًا ما حاولت بيعها، لكنه «هو» كان يرفض في كل مرة. لم يترك «هو» ثروة، ولم يهتم يومًا أن يصبح من الأثرياء، لكنه كان دومًا مشغولًا بمستقبلها حين تبلغ الكهولة، فنصحها بالاحتفاظ بتلك الشقة، لأنه كان يعرف كم هي مسرفة بطبعها. لم تستمتع قَطُّ بما ورثته عن أبيها؛ بل كانت تجد متعتها في مساعدة من كانوا في ظروف صعبة بين معارفها. وفي وقت ما، حين كانت ما زالت مهتمة بالتمثيل، فكَّرت في أن تبيع تلك الشقة، وبالمال المتحصل عن ذلك تكون هي المنتجة الوحيدة لفيلم ما، على أمل أن يحررهما ذلك من قيود نظام كبار النجوم المهيمن على الإنتاج السينمائي والمقيِّد لكاتب السيناريو، بحيث يستطيعان تجاهل مطالب السوق التي تفرض موضوعات سطحية مضمونة الربح السريع، من وجهة نظر المنتجين التقليديين. لم تكن تحلم بالنجومية، بل تتوق لتعميق الرابطة بينها وبين شاعرها من خلال عمل فني يجمعهما معًا. كانت تطمح إلى أن تكون شريكة إبداعه، كما هي شريكة حياته.

إلا أن أروع إنتاج مشترك لهما، كان تلك المخلوقة الصغيرة الذكية المرهفة، التي ربتت كتفها، بعد أن رأت دمعة تسيل على خد أمها، عندما جلست «هي» لأول مرة إلى مكتب الأب بعد رحيله.

لم تبكياه معًا قَطّ، بل كل واحدة منهما فعلت ذلك على حدة، مخبئة ألمها عن عين الأخرى.

كيف استطاعت «هي» ـ هذه المخلوقة الهشة، التي كانت في طفولتها ومراهقتها تشعر بأن الصغار مضطهدون بشكل ما ـ كيف استطاعت أن تملك من القوة ما مكَّنها من التخلص من هيمنة عقار التربتيزول، الذي ظلت تتعاطاه عمرًا كاملًا، على عقلها، وأن تحاول بوعي خلق ظروف أفضل لابنتها؟ ربما كان الدافع لها هو تعويض البؤس الذي نشأت هي في ظله؛ أمنية أنانية: أن ترى نسخة من ذاتها أكثر سعادة منها تحيا من خلال ابنتها. أم كان الدافع، على العكس من ذلك، هو ذلك الزهد في الذات والفناء في الآخرين الذي تربت عليه في مدارس الراهبات؟ لا أحد يعلم. لم تعرف هي قَطُّ كيف استطاعت، على افتقارها للثقة في النفس، أن تقوم بتلك الرحلة الطويلة الشاقة من الرعاية اليومية والمسؤولية عن تربية ابنتها، وحيدة مرة أخرى في ظل غيابه؟

كانت ابنتها تحتاج إلى من يُيسِّر لها الحياة وسط تعقيدات عالم متصارع، ولمن يعلمها كيف تتعامل مع الصراعات بشكل بنَّاء وأكثر إيجابية من تعاملها «هي» أو تعامل أمها من قبلها. كان عليها، بعد أن تركت رحم الأم الدافئ، أن تواجه العالم البارد وتتأقلم مع تَبدلاته الدائبة. ما تعريف الطفولة السعيدة؟ وكيف نفهم الحرية داخل إطار قواعد المجتمع الشرقي؟

الآن قد ذهب شعاع عبقريته، ذلك الضوء الذي توهج كأشعة الشمس المنعكسة في بِرَك الشوارع. كانت ستولد وتموت دون أن ينتبه لها أحد، كزهرة ذهب أريجها هدرًا في ريح صحراوية، لولا أن ظهر «هو» في حياتها قبل أن تبلغ «هي» العشرين، لكنه تركها في منتصف الطريق، وحولها مستنقع من اليأس والأحزان.

إن شريطًا متحركًا من صور الماضي يمر الآن في عقلها، على الرغم من العقاقير التي أحالت ذكرياتها إلى جِصٍّ. ترى نفسها طفلة في شقة جدتها القديمة، وهي تبكي بعد أن أقفل الكبار عليها الأبواب الزجاجية المدرعة بقضبان من صُلب، وذهبوا لقضاء السهرة في الخارج تاركين إياها وحيدة. إنها الآن تحاول سُدى أن تستيقظ قبل موعد قدوم أتوبيس مدرسة ابنتها، فعقلها مخدر بفعل الأقراص وبفعل الحزن.

لكن الانطباع الذي تتركه في عيون الناس مختلف تمامًا، في جلستها بنادي الجزيرة، الذي أسسه الاحتلال البريطاني، واشتراكها في تحضير حفلات أعياد الميلاد التي لا تنتهي لأطفال النادي، بما فيها فقرات إضحاك الأطفال التي لم تعرفها أعياد ميلاد طفولتها، لكنها شائعة الآن في أوساط الأرستقراطية الجديدة في تسعينيات القرن العشرين، التي شهدت سنوات طفولة ابنتها وصباها. أما أيام صباها هي، فإن حفل عيد الميلاد الباذخ الوحيد الذي تتذكره منها، كان احتفالًا بميلاد إحدى زميلاتها بالمدرسة، وقد جهَّز والدا تلك الطفلة كعكة ميلاد هائلة ذات أدراج، وفتحا تلك الأدراج بعد إطفاء الشمع، لتخرج منها كتاكيت مذعورة تَسابَقَ الأطفالُ على حمل أكبر عدد منها في أيديهم.

كانت تريد أن تبتعد بابنتها قدر المستطاع عن العزلة التي يفرضها كونها طفلة وحيدة، ولذلك فقد

دأبت على دعوة صديقات طفلتها إلى البيت ليلعبن معًا، بحيث تمنحها الفرصة لتكوين شخصية اجتماعية، بعكس شخصيتها «هي».

فلم تتح لها «هي» في الطفولة فرصة تكوين أكثر من صداقة وحيدة مع ابنة أحد الجيران، دون أن تسبب أي إزعاج لجديها. لقد كانت مصر الخمسينيات كوزموبوليتانية؛ لكن بعد ثورة عبد الناصر هاجرت صديقتها الإيطالية، وبعدها اليونانية، ثم صديقاتها اليهوديات.

أما الآن وقد كبرت، فهي تجمع الأطفال، طفلتها وأصدقاءها، في نزهة بالسيارة وزيارة للأهرامات. وفي الطريق تغني بأعلى صوتها وهي تقود السيارة، مع الأغنية المنبعثة من الكاسيت. إن إخفاء الألم أمر سهل، فهي، في النهاية، متخرجة في قسم التمثيل بمعهد الفنون المسرحية، ويمكن أن تُعَد ممثلة بالفطرة. أو ربما يعود الأمر إلى كونها تدربت دائمًا، بشكل غير مباشر، على الاحتفاظ بأفكارها لنفسها، حيث لم يكن حولها أحد يمكنه أن يلاحظ ما كان يعنيها. ربما لم تتعلم قَطُّ كيفية التعبير عن احتياجاتها، أو لم تسمح لها الظروف إلا بذلك السلوك الصامت. أو قد يكون مرجع ذلك هو الخوف؛ خوفها من الإحباط في حالة البوح للآخرين بما يدور في نفسها. وكان والداها يُدخلانها في حياتهما بأكثر مما تتطلبه راحة نفسها كطفلة، إلا أنهما كانا يعاملانها كمشاهدة لا مشاركة.

وكانت تتلقى من والديها تعليقات متعارضة. ففي أحد الأيام، أرتها أمها بافتخار صورة والدها المنشورة في إحدى الجرائد السودانية، وأعلنتها بأن أباها صار مليونيرًا بعد أن كسب قضية مرفوعة في المحاكم. بينما كانت الصورة التي تلقتها عنه من خلال جدتها أنه «بلطجي» أغرى ابنتها بالهرب معه ليتزوجا وهي في الثامنة عشرة، ولم يدُم زواجهما أكثر من ستة أشهر، وأنه لم يكن أكثر من شخص فاشل غيور وسيئ الظن بطبعه.

ومن خلال قراءاتها، تعرف الآن أنه عند فقد الطفل لأحد والديه، فإنه يحتاج إلى وجود أحد الأقرباء أو الأصدقاء يمكنه أن يلعب دورًا أبويًّا تعويضيًّا في حياة ذلك الطفل. ولكنها بعد موت زوجها، كانت قد قطعت علاقتها بأصدقاء المعهد الذين صاروا نجومًا الآن، ويعيشون في جو من خلو البال لم تعد تستطيع المشاركة فيه أو التكيف معه. وصار معظمهم لديهم زوجات، وأصبحت هي تشعر بأنها غير مرحب بها في وسطهم كأرملة.

الوحيد بينهم الذي ظل أعزب كان شخصًا كأنه من شخصيات تشيكوف وكانت تسميه «الأمير الصغير». كان الأطفال بالذات ينجذبون إليه وكان هو يستمتع بالتمثيل في مسلسلات الأطفال التلفزيونية، حتى إن كان من يمثل فيها يتقاضى نصف الأجر الذي يتقاضاه عادة في مسلسلات الكبار! بما يعني أن التمثيل للكبار أكثر أهمية من التمثيل للصغار. كان متاحًا لها من خلال زياراته الأسبوعية القصيرة التي كانت تعتذر أثناءها عن أنها صارت مملة وحزينة. وكان يحترم اللحظات التي تلمع فيها فجأة في وجهها دمعة. لم تسمعه قَطُّ يكرر العبارات المعتادة على ألسنة الناس في

لحظات كهذه: مثل أنه آن الأوان لكي تنسى، وتتجاوز الأزمة وتتطلّع لما هو قادم.

وفي ذات مرة، همست في أذنها ابنتها وكانت في السابعة، أثناء إحدى زياراته: «لِمَ لا تتزوجينه؟»، فضحكا معًا على الفكرة.

كانت ابنتها تريد وجود ثلاثة أشخاص في المنزل من جديد. وبلغة دينية، بدت روحها كما لو كانت تحتاج إلى حلول الأب والابن والروح القدس. لم يكن للجنس أهمية. وفي ذلك التوقيت، تعرفت بالصدفة على مدرسة نمساوية في سن الثلاثين أعجبتها شخصيتها، ونشأت بينهما صداقة تطورت إلى أن عاشت هذه السيدة معهما في المنزل لعدة سنوات. كانت متزوجة من مصري، ثم تطلقت منه، وصارت تجد السلوى في أن تصحب الأطفال للنزهة وتناول الغداء في مطاعم فاخرة. وقد أخبرها طبيبها النفسي القديم، وكان أيضًا جارًا لها، أن تلك المرأة سيكون لها أثر طيب على ابنتها، التي تتعلم في المدرسة الألمانية، وستمنحها فرصة لممارسة الحديث باللغة التي تدرسها. أما ما حدث فعلًا فكان مفارقة: لقد علمت تلك المرأة ابنتها عادات الطعام الباذخ وكانت تتحدث معها معظم الوقت بالإنجليزية! ولم تنتبه «هي» لهذا إلا بعد فوات وقت طويل، وحين فعلت أحست بالندم على استماعها إلى نصيحة طبيبها التي ثبت خطؤها، وأن ذلك الطبيب كان يعاني مما يُسمَّى في مصر بـ«عقدة الخواجة»، حيث يعتقد المصري في لاوعيه بتفوق الأوروبي عليه، بما أنه يمثل القيم التي صنعت ما يُسمَّى بـ«الدول المتقدمة».

أما الأسوأ، فإنها اكتشفت مع مرور الوقت، أن تلك السيدة هي الأخرى جاءت من أسرة ممزقة؛ لكنها، على العكس منها، لم تتطوِ على آلامها وتحبسها في باطنها، بل «طرطشت» عقدها على كل من حولها. ولم تكن تحظى بأي جمال داخلي، على الرغم من أنها تنفق وقتها كله في التجمل أمام المرآة، ومالها كله على اقتناء الثياب الفاخرة، وتملأ حقائب السفر الكبيرة بأزواج عديدة من الأحذية فاقعة اللون. وكانت لديها قدرة عجيبة على جعل نفسها شخصًا لا يمكن الاستغناء عنه بين أصدقاء اللحظة والأوان؛ لكنها فجأة تسقطهم من حسابها وكأنهم لم يكونوا قَطُّ موجودين. وكانت «هي» تتعجب من الطريقة التي تتحدث بها هذه السيدة عن أخيها المدمن، لأنها كانت تخلو من أي تعاطف، كما قد جعلت أختها الصغرى، وكانت في زيارة للقاهرة، تنفجر باكية أمام الجميع، وتطلب العودة فورًا بالطائرة إلى النمسا. الشيء الذي كانت حقًّا تهتم به كان اكتناز المال، بأي طريقة، حتى لو كانت تأدية الأعمال المتدنية أثناء إجازة الصيف، مثل الخدمة في بيوت السعوديين القادمين للسياحة في القاهرة، ومراكمة الأرباح في حسابها البنكي. كيف استمعت «هي» إلى نصيحة ذلك الطبيب، فسمحت لها بالإقامة معهما في البيت لسنوات؟! هل لأنه كان شخصية حميمة وراسخة في حياتها؟ أم لأنها كانت منهكة، أو مضطربة، إلى الحد الذي منعها حتى من ملاحظة افتقاره للكفاءة؟ أم أن ذهابها لجلساته النفسية كان عادة لا جدوى منها متوارثة عن أمها؟

لكن أميرها التشيكوفي الصغير أعاد الاتزان لحياتهما. نظرت إليه من خلال دموعها، فتذكرت

كيف صارا صديقين: ذات يوم، وهما تلميذان في معهد الفنون المسرحية، موَّهت عليه مازحة بأنها تؤيد الأمريكان في حربهم على فيتنام، قائلة إن لهم كل الحق في تورطهم العسكري هناك. في البداية، ظن أنها جادة فيما تقول. ففي ذلك الوقت، لم يكن بعد قد عرفها جيدًا. وتساءل عاجزًا عن الفهم: كيف تزوج الشاعر الذي يحبه كثيرًا من هذه الرأسمالية، خريجة الجامعة الأمريكية ذات الآراء السياسية الصادمة؟! فعلى الرغم من أنه نما فنيًّا ليصبح ممثلًا كوميديًّا فيما تلا من سنوات، فإنه كان منذ البداية أكثر أعضاء الشلة من طلبة المسرح جدية. وكان مثلها حاصلًا على شهادة جامعية من قبل الالتحاق بمعهد الفنون المسرحية. كانا معًا أكبر طلبة الدفعة سنًّا، وإن كانت هي تكبره بعام. وكانت دائمًا ما تعنفه كلما رأته يقرأ جريدة الصباح قبل دقائق من دخول امتحانات المعهد. كانت سيارتها المرسيدس تقوم بعمل حافلة عامة مهمتها توصيل زملائها من الطلبة من وإلى المعهد، وأحيانًا لم يكن في جيوبهم حتى ثمن تذكرة أتوبيس النقل العام. وكانت وسيلتها في إغاظته أن تطيح بالجريدة التي في يده، صارخة في وجهه: «لا أحب السياسة!».

في وسط الصورة الصديق الفنان عهدي صادق «الأمير الصغير» يوم عيد ميلاده في منتصف السبعينيات، وحوله الأصدقاء مصطفى متولي وفاروق الفيشاوي ومجدي إمام وعمرو حسني

يقول المفكر اللبناني جبران: «إن الصديق هو حاجاتك حين تستجاب». وكانت هي تقارن دائمًا بين صديقها هذا وبين صديق وزميل لوالدتها، كان قد لعب بشكل غير مباشر دورًا في طفولتها هي. كان ناقدًا فنيًّا، فكان يصحبها إلى معارض الفن، كما ساعدها في تعلم اللغة العربية حتى

تخرجت في الجامعة. أما صاحبها التشيكوفي فكان أكثر ديناميكية في تداخله مع حياتها هي وبنتها، فلم يخذلهما يومًا. حتى وهو يتشاجر مع البنت حول ثورة يناير، ظل دائمًا يحنو عليها ويرعاها، ولم يهجرها قَطُّ كما فعل صديق والدتها «هي» معها في لحظة فارقة من حياتها. فكان ذلك الممثل الصديق يحرص دائمًا على رفع روح الطفلة المعنوية وكذلك روح الأم. وكان عادة يفعل ذلك بأن يقارن بين أسرتهما الصغيرة وبين أسر أخرى في الوسط الفني لم تفقد عائلها وما زال الأب فيها حيًّا يُرزق؛ فكان يؤكد لها أنها أبلت بلاء حسنًا في تربيتها لابنتها، كلما ساورها الشك في ذلك. والآن تتساءل: كيف استطاعت أن تتعامل مع الصراع النفسي الداخلي والتوترات الحياتية الخارجية معًا وتتغلب عليهما؟ هل تطورت بما يكفي لأن تصبح أمًّا جيدة؟ كانت لا تزال تعاني من حيرة واضطراب في المفاهيم. وكان التغير إلى الأفضل يحتاج إلى إعادة ترتيب وتنظيم المدركات، سواء فيما يتعلق بفهمها لنفسها أو للآخرين. فهل تمكنت من ذلك التغير المفاجئ إلى الأفضل، في وجه فقدانها الفادح غير المتوقع لزوجها، وابنتها ما زالت في سن صغيرة جدًّا؟

ألا يقولون إن الأم السعيدة هي القادرة على صنع أطفال سعداء؟ إلا أنها تشعر بصدق ذلك الصاحب وهو يؤكد لها أنها نجحت في مهمتها الصعبة وأحسنت تربية ابنتها، ويقارن بين ذلك النجاح، وبين إخراج الروائع من أصابع امرأة مبدعة في شُغل الإبرة.

كان الحب عملية ابتكارية لم تحلم بالقيام بها حتى قابلت ذلك الرجل؛ ذلك الشاعر، زوج المستقبل الذي ظل يمدها حتى بعد وفاته بميراث من التجدد الذاتي والإصرار. كما أن حبها لابنتها أضاء وجدانها خلال عملية تطورها. وقد لامت صديق أمها المقرَّب، الذي ربما كان حبه للأم من طرف واحد قد جعله يتطلع إلى وسائل تتيح له أن يكون موجودًا ونافعًا. إلا أن صديقها هي، تلك الشخصية التشيكوفية، كان أكثر صدقًا في تعاونه معها وتخفيف الحمل عنها في سنوات تنشئة ابنتها. لقد أحسنت الاختيار حقًّا، بدافع من غريزتها، تمامًا كما فعلت من قبل عند اختيارها للزوج في سن مبكرة.

لقد كان من عادة صديقها التشيكوفي، أن يجلس لساعات إلى زوجها، حين تكون شلة الرفاق قد غادرت، وحتى ساعات الصباح المبكر. وكان من عادته أن يشكو لزوجها سطحية بعض كُتَّاب السيناريو والمخرجين السينمائيين. فكان زوجها يتطلع له باسمًا، وقد أثير حس الدعابة لديه، ويقول له: إنك جاد إلى درجة نادرًا ما توجد بين الممثلين، ثم يعلق متنبئًا ـ وقد صدقت نبوءته ـ إن الأمر الذي تشكو منه سيسوء أكثر في المستقبل.

نعم، لقد صدق. فقد أحكم الآن منتجو دولارات النفط قبضتهم على السينما والتلفزيون بقوة أشد. وقد أصبحت مصر في الأعمال التي ينتجونها عبارة عن عاهرات وقوادين وموظفين فاسدين مرتشين، مع إضافة كم من العنف لم تعهده من قبل الأفلام المصرية، وذلك في محاكاة للأعمال السينمائية الأمريكية. وهم يقدمون على الشاشة صورة قاتمة للإخوان المسلمين، إلا أنهم تحت

السطح من ذلك يمولون تدريجيًّا صورة وهابية متطرفة للإسلام تختلف تمامًا عن حقيقته؛ وبذلك يؤثرون على كثيرين، حتى بعض خريجي الأزهر ووعاظه، مما يضر بما عُرف عن مصر من وسطية واعتدال.

لقد أحبت شاعرها لأنها رأت في أسرته ما يمثل حقًّا عائلة مسلمة، تختلف عن البيئة المسيحية التي نشأت فيها. وقد وصف شيكسبير الحب في «روميو وجولييت» بأنه «جنون هو قمة التعقل». فهل كان حقًّا جنونًا؟ أم كان، كما في علم الفيزياء، لبِنَة من تلك اللبنات التي منها بُنِيَ العالم؟ لَبنة تفوق في رقتها ورهافتها ما تستقبله «شبكة اصطياد فراشات الوجدان» في حواسنا، كما يُعبِّر جاكوب برونوفسكي بمنتهى الشاعرية.

لم تكن تعلم جيدًا. لم تكن تعلم كثيرًا. لم تكن تميز شيئًا بوضوح، أو تملك قدرة التعبير عما في داخلها.. لقد كانت كإنسان الكهف، تختبئ من الحر والبرد القارس.. حاولت أن تعرف نفسها كما أمر حكيم الإغريق، أن تحفر عميقًا في وجدانها، كما يحفر الباحثون عن الكنوز، لكنها كانت تفتقر إلى أدوات الحفر والتنقيب. كانت اللغة تقوم جدارًا حائلًا بينها وبين ما تروم، على الرغم من أنها تجيد عدة لغات!

بورتريه لها بريشة شاعرها

كانت الشمس حمراء مثل وجه على وشك الانفجار في البكاء. كنا في أبريل ١٩٨٦، وشاعرها في غيبوبة منذ خمسة أيام. لقد سمحوا لها مرة واحدة بالدخول إليه في غرفة العناية المركزة. طلب منها الأطباء الحديث إليه، عسى أن يعيد ذلك وعيه. وقال لها طبيبها النفسي إنه لم يواصل حياته حتى الآن إلا لوجودها فيها. وربما كانت تلك الملاحظة هي الحسنة الوحيدة له خلال سنوات طوال من مواظبتها على زيارة عيادته. لقد كانت تلك هي المرة الوحيدة التي شعرت فيها ببعض الراحة مع طبيب ينتمي إلى المدرسة الفرويدية العتيقة، لم يفلح طوال هذه السنين في تخفيف الألم عنها. كان يتخذ سمت الأب المتسلط، وبصيرته عجزت عن الوصول إلى الأسرار الرهيفة لروح الأنثى بداخلها.

وصلت المستشفى مرتدية جونلة سوداء وبلوزة رمادية مخططة بأقلام بيضاء. أحست وهي تتأمل نفسها في المرآة أنها سوف تبدل بلوزتها بواحدة سوداء في هذا اليوم نفسه! وكانت محقة. الشاعر الإنجليزي وردزورث عرَّف الشعر بأنه «الفيض التلقائي لعاطفة قوية». وهو تعريف يقوم على مبدئه الآخر: أن الشعر ينبثق عن «تذكر لحظة الجيشان العاطفي أثناء لحظة هادئة تتلوها». على ذلك، ربما حين تشيخ تدريجيًّا، وحين يسمح جسدها بأن يمحو ما اختزنته مدفونًا داخله، مثل بالوعة صرف تالفة مختنقة بما تراكم فيها من ماء فاسد، يسمح ساعتها جسدها الضعيف بخروج ما احتبس فيه طوال سنوات. وقتها ربما تتمكن من ترجمة ذلك الفيض من العواطف الجياشة إلى أي لغة تتاح لها، وتتصالح معها لكي تتمكن من التعبير بها، دون أن يحرقها الندم على عدم معرفتها الوثيقة بكُتَّاب ثقافتها الأم، التالدين أو المعاصرين، على امتداد عالمنا العربي.

إنها تتذكر الآن أمها الجميلة، التي كانت في شبابها تبدو كنجمات السينما، في ثلاثينيات القرن الماضي، وكيف تدهورت بعد ذلك!

تذكرت أيضًا، وهي ما زالت تتأمل صورتها في المرآة، تذكرت نفسها قبلها بستة أعوام، وهي حبلى في شهرها الخامس، حين أتى زوار من المصحة، وشاعرها في حجرة مكتبه المغلقة يعمل على سيناريو «موت أميرة»، مع مخرج الفيلم البريطاني أنتوني توماس. أدخلت الزوار إلى حجرة المعيشة وأغلقت عليهم الباب. كانت حجرتا المكتب والمعيشة تتواجهان، وتفصل بينهما صالة كبيرة تقوم في منتصفها مائدة طعام مستديرة من خشب الورد. لم تكن تريد أن تزعجه وهو يعمل، لكنهما ـ هو والمخرج ـ سمعا فجأة، عبر بابين موصدين، صرخة حيوانية حادة ومفزعة، فاقتحما غرفة المعيشة مندفعين. لقد انتحرت أمها. فعلى الرغم من يقظة القائمين على المصحة، استطاعت أمها أن تسرق مفاتيح السطح وتقفز منه إلى أسفلت الشارع. فزوج أمها الشيوعي هجرها إلى بيروت، بعد وعود العيش معًا حتى يشيخا كلاهما صحبة.

وشاعرها ـ لماذا تركها هو أيضًا، إثر جرعة دوائية زائدة؟ ألم تكن صحبتهما تحميه؟ فمنذ خمسة أيام استيقظت فوجدته في مقعده الوثير بحجرة مكتبه، يبدو مستغرقًا في نوم عميق. حاولت أن توقظه دون جدوى. بدأت تهزه وتدلك جبهته وأنفه بالكولونيا.

لاحظت شريط دواء فارغًا في سلة المهملات. كان قلبه ما زال ينبض ـ بعنف. اتصلت بالإسعاف. ودقت باب الجارة، راجية إياها السماح بأن تترك عندها ابنتها الطفلة، حتى تنتهي الإجراءات، ثم بعدها بخمسة أيام، وهي تطل في المرآة تضبط ملامحها قبل التوجه لزيارته بالمستشفى، تذكرت أن اليوم ٢١ أبريل، يوم وفاة أمها من ستة أعوام. أما اليوم، بعد أن صقلتها

التجارب، فصارت تدرك أن شاعرها كان، مثل ملوك الديمقراطيات ذوي الصلاحيات الدستورية المحدودة، ملكًا وحيدًا محاطًا بزمن ينهشه الفساد. وفي بلد يتوارث فيه عديمو الموهبة من أبناء الطبقة المتوسطة وظائف آبائهم، استكثر البعض عليه أن ينوِّه، في رسمة كاريكاتورية بمربعه الشهير بجريدة الأهرام، عن صدور الديوان الأول لابنه، الذي كان يراه على موهبة، علمًا بأنه فعل مثل ذلك التنويه مع كثيرين في نفس ذلك المربع الكاريكاتوري تعاطفًا مع موهبتهم. هذه التفصيلة الصغيرة كان لها تأثير عاطفي كبير ساهم في انهياره الصحي المفاجئ الذي أدَّى إلى رحيله الأليم. فقد فعل شاعرها الكثير لمواهب ناشئة قدمها لمجتمع الأدب والفن؛ إلا أنه للأسف كان محاطًا بنفوس حاقدة حاسدة لم تحفظ له الجميل، بل هاجمته في مواقف كثيرة لأسباب سياسية أعلنتها، بينما كان السبب الحقيقي غيرة صفراء من عبقريته التي تفوقهم بكثير. من بين هذه الأسباب المفتعلة، هجومهم عليه لأنه لم يعلن رفضه الفوري لتوجهات السلام مع إسرائيل بعد حروب تسببت في سقوط آلاف القتلى، أو لأنه كتب سيناريو وأغاني فيلم «خلي بالك من زوزو» الذي حقَّق رقمًا قياسيًّا في أسابيع عرضه في دور السينما. وكان يحزنه أن يرى بطلة الفيلم وقد سقطت بين فكَّي الاكتئاب، بعد ذلك النجاح بسنين، لأنها لم تستطع التكيف مع قَدَر الشيخوخة، وهي التي كانت تُسمَّى «سندريلَّا الشاشة العربية».

تذكرتْ رحلته إلى الولايات المتحدة في الستينيات وطوافه بكثير من مناطقها، ومقابلته مع عدد كبير من فناني الكاريكاتير الكبار هناك، وكيف تعجب ـ كما حكى لها ـ حين قارن نفسه بهم؛ لأنهم هناك كانوا يحظون بالتدليل من جانب مؤسساتهم التي وفرت لهم حجرات عمل فسيحة وطواقم سكرتاريا، بينما كان هو، في مؤسسته التي يرأسها الكاتب الصحفي ذو السيجار الكوبي، محشورًا مع آخرين في حجرة مكتب صغيرة، على الرغم من أنه في الماضي كانت له حجرة مخصصة له وحده. وفوق هذا كانت تصله خطابات تهديد بالقتل من متطرفين دينيين لا تعجبهم رسومه وأعماله. وكان تناوله أقراصًا علاجية مفرطة العدد يتسبب الآن في تقلبات مزاجية عنيفة لم تلاحظ مثلها عليه قَطُّ. ولم تعد شخصيته المفعمة بالحب والاحتواء قادرة على حماية ذاته المرهفة القابلة للكسر. قبل وفاته بأيام، أطلعها على لوحة كاريكاتورية مشؤومة يصور فيها الفنان، وكان أجنبيًّا، جنازته الشخصية. لم تفهم ساعتها ما كان يدور في ذهنه. ولا تفهم إلى الآن سر غضبه الرهيب في تلك الليلة. كانت حجرة مكتبه في حالة فوضى غير معتادة، كما لو كانت تدور هناك مباراة في الملاكمة، وهناك أشرطة دواء في سلة المهملات. والكراسي الخفيفة ليست في أماكنها، كما لو كان جسده تعثر بها في طريقه لمقعده الكبير.

هل زاره أحد بينما كانت هي نائمة؟ وهل كان ذلك الزائر هما الشخصان اللذان قابلتهما في المستشفى بعد ذلك بساعات، بينما كان «هو» غائبًا عن الوعي، وطلبا منها هناك سداد مبلغ تافه بدعوى أنه اقترضه من أحدهما؟ أم كان ذلك الزائر هو الطبيب الجار الذي أكد لها بعد ذلك أنه كان

يتوقع ما حدث، وكان يبدو سعيدًا بحكمته الطبية.

أعرب شاعرها لها مرة عن رغبته في الهجرة إلى نيوزيلاندا، لأنها كانت ـ هكذا قال ـ أبعد مكان في الدنيا. الآن هو البعيد، وإلى الأبد. وحين ابتعد، كانت هي في الأربعين، وابنتها في السادسة.

لقد ظهرت صديقتها رينيه من جديد. وكان لديهما الكثير لتقوله إحداهما للأخرى. وكان لدى رينيه هي أيضًا ما تشكوه. فقد تزوجت أختها الصغرى ثانية في ولاية فلوريدا الأمريكية بعد وفاة زوجها الأول، وزوجها الجديد له وجه نجم سينمائي، لكنه لعب معهم دور الشرير. فقد أخفى عن أخواتها أن شقيقتهن مريضة بالسرطان، بل وأفهم زوجته أن تشخيص الطبيب لم يكن صحيحًا، وذلك لكي يوفر ثمن العلاج، على الرغم من ثراء زوجته التي ورثت من زوجها الأول مبلغًا ضخمًا تحتفظ ببعضه في البنك، بعد أن اشترت بجزء منه قصرًا منيفًا. وحكت رينيه لها أيضًا أنها شكَّت في أمر أختها، لأنها لاحظت كلما هاتفتها من برلين أن صوت الأخت ينم عن أن صحتها ليست بخير، فطارت إليها في فلوريدا، وعندما فتحت لها أختها باب القصر، لاحظت رينيه على الفور أن شقيقتها فقدت نصف وزنها. فأخذتها رينيه إلى حيث تعيش أخت لهما في ولاية أمريكية أخرى، حيث أُجريت لها فحوص دقيقة وبدأ العلاج اللازم ولكن، للأسف، كان الوقت قد فات. وهمست رينيه في أذن أختها المحتضرة، أنها أنجزت لها أوراق طلاقها، لكن ذلك كان قبل موت الأخت بيومين!

وكانت رينيه قد أحضرت لبطلة حكايتنا على سبيل الهدية نسخة من اسكتش رسمه شاعرها لها في الماضي. وجلست الصديقتان معًا تتأملان ذلك الزوج الوغد الوسيم، وتقارنانه بهذا الشاعر الرسام، وتعجبان من الفرق الهائل بين الرجلين، وتشهدان أيهما امتلك التحضر والجمال الحق، في عالم يضع كل من هو أمريكي في مرتبة استثنائية!

هل الحب تفاعل كيميائي نادر الحدوث بين شخصين سخت عليهما الطبيعة والقدر؟ بالنسبة إليها «هي»، كان الحب يعني «فيضانًا تلقائيًّا» لمشاعر كم حرصت أن تحميها وتصونها في وجه كل المشكلات التي واجهاها معًا؛ بينه وبينها، وبينهما وبين العالم الخارجي. كانت عملية طويلة ومعقدة اعترفا معًا بصعوبتها؛ وفي الوقت نفسه، بأنها تستحق أن يخوضاها معًا. كان ذلك الحب تحريرًا من النفس للنفس وإثراءً للذات من الذات. لم تدلها علامة طريق في رحلتهما تلك معًا سوى حكمة غريزية ساقتها.

في أواخر الثلاثينيات، اشتكى مفكر صيني اسمه «لين يوتان» من أن حضارة الإنسان بلغت مرحلة أصبحنا فيها نتعامل مع مقصورات منفصلة من المعرفة كأننا في قطار عتيق؛ فلدينا تخصصات لا تتكامل ولا تندمج، ومتخصصون منعزلون، لا فلاسفة يمتلكون الحكمة الإنسانية الشاملة. كم يبدو هذا الصيني وكأنه ينتمي إلى قرننا الحالي الحادي والعشرين، وماذا كان سيضيف

لو عاش حتى أيامنا هذي؟ أكثر ما لفت انتباهه وأثار عجبه أنه بينما صوَّر الإغريق آلهتهم بملامح الإنسان، سعى أتباع المسيح لأن يدفعوا الناس ليكونوا آلهة. وقد تلقت «هي» في نشأتها المبادئ والمثل المسيحية؛ وربما كان نشدانها للكمال طموحًا إلهيًّا حاولت تحقيقه على الأرض في علاقتها الحميمة مع بعض الناس. كانت تنشغل بالأديان في زمن تجاوزها إلى العلم، وتجاوز بالعلم فضاء الدنيا إلى السماوات العُلى، فلم يرَ الله هناك. إلا أن تعاليم الدين كانت نافعة للبشرية، ولا يحتاج المرء إلى إيمان استثنائي ليدرك أهمية تلك العقائد في حياة الناس. لكن المشكلة أن رجال السياسة تلاعبوا بالدين كمطيَّة مسخرة لتحقيق مآربهم، ففرقوا بين الناس ليصلوا لما يصبون إليه من غَلَبة وانتصار؛ وذلك كان دأبهم منذ نشأت الممالك.

أحيانًا تشعر «هي» بالراحة، وتحمد الله أن شاعرها رحل قبل احتدام تدفق نافورة الدم المتفجرة الآن، وانتشارها كالسرطان في شرقنا الأوسط، صانعة بحرًا من اللاجئين والمهاجرين المشردين في بلاد الله. ففي أيامه، لم نكن نسمع عن لاجئين إلا أهل فلسطين؛ وقد تزوج «هو» من فتاة لم تكن حتى تعي أنها تنتمي إلى هؤلاء، وتعاني من فقدان الوطن والهوية. فقد كان حبيبها يعيش في زمن تسعى فيه النخبة المثقفة معًا، مع الجماهير العريضة، للتخلص من وجود الأجنبي المحتل لأراضيهم. ومن مفارقات الزمان، التي تحمد الله أنه لم يرَ عجائبها، أن «أحرار» أهل الزمان الحالي، من بعض العرب، خاصة في دول الخليج وممالكه، الموصولين بوول ستريت بحبل سُري، يطلبون الآن تدخل ذلك الأجنبي لـ«يحرر» الجمهوريات العربية المجاورة لهم من هذا الطاغية أو ذاك.

قال لها شاعرها ذات مرة إن بعض المثقفين هنا قد أحسوا أن حياتهم فقدت معناها بعد نجاح مصر في إجبار الإنجليز على الخروج منها. وكان معظمهم يعتمدون عاطفيًّا على عبد الناصر كمنقذ ورمز أبوي، فراحوا في نعاس واكتفوا بمدحه، أو انتقاده في أعمال فنية وأدبية تدور أحداثها في مراحل تاريخية بعيدة يخفون في طياتها شكواهم. لم يدرك هؤلاء، إلا قليل منهم، أن التدخل الأجنبي في شؤونهم سوف يستمر، ولكن بشكل مقَنَّع. كم كانوا سذجًا، فقد كان بإمكانهم أن ينتبهوا لذلك إذا تأملوا إعادة رسم حدود بلدانهم في معاهدة سايكس-بيكو، التي ترك الإنجليز فيها منفذًا يدخلون منه، من هنا أو هناك. ولقد أثَّر ذلك التدخل الخفي حتى على جيل ابنتها حين اندلعت أحداث الربيع العربي في ميدان التحرير.

لقد تعرَّض الإسلام للتشويه المتعمد، تمامًا كما حدث لليهودية من قبله، قبيل تأسيس دولة إسرائيل في ١٩٤٨. كان هناك يهود في أوروبا يعارضون الصهيونية، ويعتبرون إقامة دولة إسرائيل عملًا لا أخلاقيًّا، واشترك هؤلاء مع لاجئي فلسطين في مظاهرات تندد بذلك المعقل الاستعماري الأخير القائم في الشرق الأوسط، بينما كان العالم العربي الإسلامي نائمًا تحت ثقل كابوس الاضطرابات القادمة، أحيانًا في ظل مخطط دعائي ماكر يسعى لصرف انتباههم عن الخطر المحيق بهم. فمثلًا

استثمر منتجو دولارات النفط أموالهم في مسلسلات تصوِّر للمصريين جمال الحقبة التي عاشوها في سلام داخلي مع يهود مصر جنبًا إلى جنب قبل قيام إسرائيل. بل تأسس في قطر «تحالف أدمغة» تخصص في كتابة سيناريوهات درامية هدفها غسل أمخاخ المشاهدين فيما يتعلق بهذا الأمر. وصار الإعلام العربي عمومًا يدعو إلى قبول كل معتنقي الديانات، دون أن يُفرقوا بين الأمور العقائدية والمسائل السياسية؛ أي بين الصهيونية والدين اليهودي. وبعدها غيَّر الإعلام نبرته، فأنتج برامج خاصة هدفها نشر الكراهية بين المسلمين والمسيحيين، أو ما بين طوائف المسلمين إحداها مع الأخرى. وأعلن أوباما بوضوح، في خطبة وداعه للسياسة، عن ارتعاب أمريكا من الربيع العربي، وحرصها على ألا يؤدي نجاحه إلى إصابة إسرائيل بالضرر. وقد تمخض الأمر في النهاية عن فورة تلقائية لتلك الشعوب كان لا بد من توجيهها لتحقيق مصالح القوى الكبرى في العالم والإقليم.

كانت صحوة أصيلة لوعي الجماهير. حتى صغار المتسولين اختلطوا بالحشد العظيم طارحين أنفسهم فداءً لهم، ومواجهين بصدورهم الخطر بدلًا منهم، حماية لأولئك الذين اعتبرهم هؤلاء الشحاذون أكثر نفعًا منهم للمجتمع ولا يمكن الاستغناء عنهم؛ فهم ـ بعكسهم ـ قارئون متعلمون وأكثر استحقاقًا منهم للحياة، وقادرون على أن يناصروا قضيتهم وينتصروا للأجيال القادمة.

حين ثبَّط إخفاق الانتفاضة عزم ابنتها، حاولت سُدى مواساتها. قالت لها: إن هناك قوى أكبر منكم بكثير دخلت اللعبة. فالولايات المتحدة وحدها لها ١٩٠٠ منظمة استخباراتية تمارس العمل فقط في الشرق الأوسط، ناهيكِ عن اللاعبين الآخرين في العالم والمنطقة. هؤلاء انتحلوا شخصية الجيش والشرطة المحليين وتقمصوا زيهم، مرتدين ملابس عسكرية مزيفة مشحونة من قطر، وهؤلاء الأجانب بدورهم كان لهم وكلاء من داخل البلاد. لكن ابنتها لا تتفق معها، وتصر على أن هؤلاء كانوا رجال جيش وشرطة حقيقيين. السيناريو نفسه كان يحدث في سوريا في التوقيت نفسه؛ لكن الناس كانوا منهمكين في أحداث الفوضى الداخلية إلى درجة أنهم لم يستطيعوا متابعة أنباء ما يحدث هناك من مصادر موثوقة كما فعلت هي. وهي كانت تُتهم أحيانًا بعدم اكتراثها بما يحدث في مصر، بينما كانت جلية الأمر أن غريزتها دفعتها لاستشراف الأمل بمحاولة تتبع النمط المتنامي في الإقليم كله ـ الإقليم الذي ينظر إليه الأعداء على أنه كلٌّ لا يتجزأ ـ في وقت استغرق المصريون في محاولة استيعاب ما يتكشف من أحداث محلية رهيبة.

في الماضي انتشرت شائعة تقول إن الفلسطينيين باعوا أرضهم، وبالتالي استحقوا ما حدث لهم. لكن جدتها جلبت معها إلى مصر كل الأوراق التي تثبت ملكية أسرتها لأراضٍ ومبانٍ في منطقة في حيفا كان أهل المدينة يطلقون عليها اسم «المستعمرة الألمانية»؛ لكنها نسيت شهادة ميلاد حفيدتها. ويدَّعي آخرون أن الفلسطينيين المهاجرين في الأرض كلهم أغنياء؛ ويكتشف المرء ثراءهم كلما التقاهم في أي بلد من البلاد. وحقًّا ينطبق هذا على البعض القليل منهم. فهم ميسورون

أصلًا، مكَّنهم ثراؤهم من الصمود في وجه النكبة، والنجاة في أرض الشتات؛ مثل أسرتها «هي». وحال الفلسطينيين في هذا مثل حال أي شعب آخر مزقته وشردته كارثة. وقد استمعت صاحبتنا إلى مثل هذه التعليقات التي انتشرت بكثافة في مصر بعد كامب ديفيد، وتحيَّرت من مدى شيوع الجهل عبر وسائل الإعلام. فقد لام الكثيرون وأدانوا الشعب الفلسطيني كله، محملين إياه ذنب الفصائل المتناحرة في صفوفه. وتعامى الناس عن مشهد معسكرات اللاجئين حيث يتكدس الفقراء من ذلك الشعب وينتشرون تحت وطأة ظروف غير آدمية ساعين فقط إلى البقاء على قيد الحياة. وإن رأوهم قالوا إن مصر نفسها لديها وأكثر نصيبها الوافي من الفقراء والمشردين، وقد دفعت ما يفوق قدرة تحملها من التضحيات من أجل فلسطين. ولم يشأ هؤلاء أن يدركوا أنه بمجرد توصل إسرائيل لمعاهدة سلام مع مصر والأردن، اجتاحت لبنان، كخطوة أولى على طريق إخضاع المنطقة بأسرها. فالشرق الأوسط إقليم أصغر بكثير من الأمريكتين الشمالية والجنوبية اللتين تعرض سكانهما الأصليون للإبادة. وسواء أحب العرب أن يعترفوا أم كرهوا، هم جسد واحد ـ جسد موبوء للأسف ـ تتناحر أعضاؤه فيما بينها وتتحارب، وتعمى عيناه، أو تتعامى باستهتار، عن ترياق الشفاء من وباء الجهل. حتى الأثرياء المنعَّمون منهم لا يكترثون، معتقدين أن تحالفهم مع الغرب يحميهم ويشفيهم من كل داء.

«هي» لا تستطيع استعادة الزمن الذي مضى. فالنهر الذي يجري أمامنا، وهو نفس المجرى القديم، لا يتكوَّن من قطرات الماء الأولى نفسها، بل كل قطرة فيه جديدة، كما قال قديمًا أحد فلاسفة اليونان. وقد جرى في العقود الأخيرة الكثير من أنهار الدماء بين العرب وصهاينة اليهود، أكثر مما يُحتمل، على الرغم من أن هذه المنطقة من العالم لم تضطهد اليهود مثلما اضطهدتهم أوروبا في الماضي. فهذه الأرض هي أرض التسامح والتوحيد؛ الأرض التي ظهرت فيها الديانات السماوية الثلاث.

وقد لاحظت «هي» في الماضي، حين كانت تدرس في مدرسة ثانوية داخلية في إنجلترا، كيف كانت زميلاتها يُسِئن معاملة تلميذة نيجيرية جاءت حديثًا من أفريقيا. كانت «هي» تدافع عنها، في وجه تعليقات الإنجليزيات السامة. فكم استمعت منهن إلى مقولات ترى أن الأفارقة لا يرتقون إلى مستوى فكري يمكِّنهم من حكم أنفسهم؛ وآراء أخرى تنتقد مثلًا الجانب الاستبدادي من تجربة عبد الناصر، متجاهلة الجوانب الأخرى المضيئة لزعيم كان له الدور الأكبر في تحرير أفريقيا، في عهد كان القادة الثوريون الأفارقة يتعرضون فيه للاغتيال على يد المخابرات المركزية الأمريكية أو مكتب التحقيقات الفيدرالية.

وقد استقبل زوجها في أحد الأيام صحفيين من إسرائيل، بعد معاهدة السلام بين البلدين، ودعاها لمقابلتهم في حجرة مكتبه. سألوها إن كانت ترغب في زيارة حيفا، مسقط رأسها والمدينة التي وُلدت فيها، فأجابتهم فورًا بتلقائية أنها لا تريد أن تعيش من جديد الذكريات الأليمة لاجتثاث والديها

وجديها من جذورهم؛ فقد خرجت من وطنها في سن صغيرة، واستطاعت أن تتكيف مع الحياة في بيتها الجديد مصر.

وقد غضب بعض النشطاء من أصدقاء زوجها، غضبوا منه لأنه لم يُسرع لمناهضة فكرة السلام. حتى إن واحدة من صديقاته قالت إنها لن تكلمه بعدها أبدًا، لأنها تعتبره الآن في عداد الموتى. وقد آلمه ذلك، لكنه لم يفصح عن ألمه. فقط سألها برقته المعهودة إن كانت ستأتي يومًا ما لتضع زهرة صغيرة على قبره. كانت تلك طريقته في إخبارها أنه ما زال يقدِّر صداقتهما على الرغم من اختلاف الرأي.

معظم زملائها في معهد الفنون المسرحية رحلوا عن العالم، بعد مشوار مع الفن يتراوح في نجاحه. وكان أقربهم إلى قلبها هو أكبرهم نجاحًا. وكان قد جاء إلى المعهد في القاهرة قادمًا من إحدى قرى الدلتا، ببشرة قاتمة السمرة وعينين حزينتين. ولم تكن ملامحه تلك مما يشجِّع منتجي السينما على إعطائه دور البطولة؛ فقد كانوا يفضلون لهذا الدور سحنة هوليوودية.

وكان مدرس البانتومايم في المعهد رجلًا محسنًا خيِّرًا، فكان يعطي لذلك الطالب الفقير ـ الذي سيصبح نجمًا فيما بعد ـ جنيهات يسد بها رمقه. وكان يطلب منه في المحاضرة كل أسبوع أن يحل أزرار قميصه ليرى جميع الزملاء إن كان صاحبنا قد اكتسى جلده وعظمه بعض اللحم. وكان الفتى دائمًا ما يشعر بالمذلة والإهانة إزاء نحافته الزائدة وملابسه الفقيرة. كانت أمه قد تزوجت بعد وفاة أبيه، وأرسلته إلى جدته لتربيه. وقد أنجبت هي من الزواج الثاني جيشًا من الأبناء كانت تفضلهم عن مولودها الأول، حتى بعد أن أدرك النجومية. كانت هذه الحقيقة ـ أو الاعتقاد ـ لها أثر على علاقاته النسائية. فقد كان يفضل الشقراوات ولا يتزوج منهن واحدة. وقد أسَرَّ إليها ـ ذلك اليتيم النجم ـ أنه كلما أعطى أمه نقودًا، في زياراتها له بعد نجاحه، كانت تضعها في منديل تدسه في صدرها على طريقة الريفيات، ثم، بمجرد خروجه من الحجرة، تعطيها لأحد إخوته الذكور ممن جاءوا في صحبتها. وقد رحل بعد صراع طويل مع مرض السرطان، متنقلًا في أثنائه بين حجرة المستشفى وبلاتوه التصوير السينمائي. وفي ليلته الأخيرة، استيقظت «هي» من نومها فجأة، واتصلت بابنتها، بعد مسيرة قلقة في أرجاء شقتها الصغيرة، تسألها مع شقشقات الصبح عن أخباره، وردت الابنة مستغربة بأن الحال كما هو عليه ولا جديد، وقد لمست هذا بنفسها في زيارة أخيرة منذ يومين. لكن بعد مرور ساعتين اتصلت بها ابنتها من جديد، وأبلغتها أنهم أعلنوا في النشرة خبر وفاته!

قبل ذلك اليوم بكثير، حين كانوا جميعًا في خير صحة ويتفجرون بالحياة، جلست مع شلة الزملاء يتسلون ضاحكين بتخيُّل شيخوختهم، والأمراض التي يتوقعون أن يصاب كل واحد منهم بها. بدأوا بأن نظروا جميعًا إلى صاحبهم الذي يبدو كإحدى شخصيات تشيكوف، وأعلنوا وهم يتلوون من الضحك: لسوف تظل على قيد الحياة بعد أن تدفننا جميعًا. وقد كان صاحبهم هذا شخصًا استثنائيًّا

بحق: كان هو الآخر يتيمًا وكفله عمه. وقد اختار شاعرها ليكون أبًا روحيًّا له، فكان يقلده دون أن يشعر في تفاصيل صغيرة: مثل سيجارة قبل النوم كطقس ليلي. وربما كانت هي الأخرى ترى شاعرها أبًا لها، مما أثر بالسلب على علاقتهما الزوجية.

ذلك الصاحب التشيكوفي ضئيل الحجم، الذي كانت تدعوه بـ«أميري الصغير»، لم تُكتب له النجومية، بل كان نصيبه أن يؤدي بعض الأدوار الفكاهية الصغيرة، التي ساعدته على الرغم من ذلك على توفير مبلغ من المال يكفي لشراء شقة ضيقة وسيارة، لكن في حياته كان نجمًا. لم تكن تتخيل أنه سيكون من النبل والكرم بحيث يفعل ما فعله أحد أقربائها البعيدين الذي كتب لأحد جدودها كل ما يملك؛ لكنه فعل شيئًا قريبًا من هذا، ما زاد من نجوميته لديها ومن استحقاقه اللقب.

لقد كبرت ابنتها؛ نمت لتصير امرأة شابة جميلة وذكية ومستقلة في الرأى تعتمد على نفسها. وتُوفي عم الأمير الصغير، تاركًا لابنته، غير المتزوجة والتي بلا سند، معاشًا قليلًا لا يكفي حاجتها. ظلت تنتقل بين شقة صغيرة إلى شقة أصغر دون أن تجد القدرة على تسديد الإيجار، حتى انبرى صاحبنا الأمير فاشترى لها شقة تمليك صغيرة امتنانًا لعمه وعرفانًا لجميله. نفس ما فعله تقريبًا ذلك القريب البعيد، الذي لم تكن له ذرية ترثه، فوهب ثروته كلها لذلك الجد البعيد في أسرتها. أليس يستحق إذن لقب «أميري الصغير» الذي صارت تناديه به، حتى من قبل أن يفعل ما فعل من جميل لابنة عمه؟

كانت «هي» قد رأت ما حدث لبعض زملائها الذين دفعهم الفشل في بلوغ النجومية إلى أن يصيروا شخصيات محبطة مهزوزة؛ على العكس من صاحبها، الذي كان من الواقعية والموضوعية بحيث ارتضى نصيبه وتقبَّل أدواره الصغيرة، وأخذها بجدية، فكان يختارها بحرص ويدرسها جيدًا. لقد كانت هي وابنتها محظوظتين لأن يكون هناك في حياتهما صديق مثله.

وكان من الصعب على الشرقيين تقبل فكرة الصداقة بين رجل وامرأة، ولهذا ظن الناس أنهما تزوجا بعد رحيل شاعرها. فلقد كانوا يرونهما معًا في كل مكان. وكانت هي في هذه العلاقة تجمع بين الجرأة والسلوك المحافظ. فالحرية بالنسبة إليها كانت لها حدود صارمة، تمتزج فيها القيم الغربية بالشرقية، في مزيج خاص بها سنَّته هي لنفسها على طريق الحياة في المجتمع. كانت دائمًا تواجه نفسها بأسئلة جدلية، واستطاعت أن ترتجل على درب الحياة أجوبة لها. وبهذا تمكنت من أن تحتفظ بالنظام وسط التغيرات، وتفوز بالتغير في قلب النظام الصارم.

واكتشفتْ أن الزهد في متطلبات النفس لا يقل صعوبة عن أن يكون المرء نفسه. ففي الحالتين ستواجه بتحديات: إما من الذات وإما من المجتمع. ويعتمد الأمر على مدى قدرة المرء على أن يقدم تنازلات وفي الوقت نفسه يفوز بالاتساق مع الذات والرضا عنها. أمَّا في حالتها، فلم تمتلك «هي» من الشجاعة ما يمكِّنها من «استكشاف النفس عن طريق الكتابة»، كما وصف يونيسكو الأدب؛ إلا أنها امتلكت من القوة ما ساعدها على اتخاذ مواقف غير تقليدية في حياتها اليومية. فمن

المؤكد أنها استوعبت جوهر كل الأديان، بما أنها تعرضت لها في سن مبكرة، بغض النظر عن تشككها من حين إلى آخر؛ فهي يمكنها بسهولة أن تفرح لفرح الآخرين وتحزن لمعاناتهم. فمراعاة طقوس الديانات والالتزام بها ليس بأهمية الاستماع القلبي للرسالة الأخلاقية التي حملها كل الأنبياء. ومن المفارقات أنها، بعد رفض طويل وشديد للإنجاب، يقابله إصرار من قِبل زوجها على العكس، كان استسلامها النهائي لقدر الأمومة سبيلها لإعادة اكتشاف الذات. فتجربتها الشعورية والعملية للأمومة كانت بمثابة تحقق وتجدد وجداني لها. فقد اكتسبت بها طاقة عقلية لها حياة قائمة بذاتها، مثلها مثل غرائز الحيوانات التي تُعلِّم نسلها فن البقاء على قيد الحياة. لقد صارت بعد الأمومة تنظر إلى مشوارها الفني الذي لم يُكتب له النجاح بلا أي ندم. ولم يكن الأشخاص الذين تقابلهم قادرين على فهم مزيج الحرية والتحفظ الذي تعيش به، وبهذا لم يتقبلوها أو حتى يتخيلوها في أي دور جديد. كانوا دائمًا يختارون لها دور «الخواجاية» ولم يكن هذا يرضيها كثيرًا. لكم تمنت أن يكون لها مظهر الفتيات المصريات! كان الأمر ببساطة كما لو كانت «هي» ريحًا عاتية تهب في أجواء هادئة ومناخ مستقر؛ وهو ما جعل حبسها في قمقم الأدوار المعتادة مسألة بالغة الصعوبة.

كانت تجد الكثير من الأمور المشتركة تجمع بينها وبين «أميرها الصغير». فمما أثار دهشتها التي تقارب الذهول أنها لمست بينهما توأمة روحية فيما يخص موقفهما من إنجاب أبناء على الرغم من حبهما الشديد للأطفال. وأيضًا احتفظ كلاهما ببراءة أيام التلمذة في المعهد، واشتركا في تحفظهما الشديد إزاء ما يحدث في كواليس حياة الممثل. كما أنهما كليهما تشرَّبا وجدانيًّا بمزاج من قيم المسيحية والإسلام يتعايش مع شكوك تراودهما أحيانًا، وكان إيمانهما يقوم على جوهر الدين أكثر من الطقوس السطحية.

أما فيما يخص ابنتها، فقد تمنت لها أن تكون أكثر منها إصرارًا على فرض ذاتها وتحقيقها. كان أبواها «هي» قد فشلا في تحقيق تواصل فِعلي معها أثناء مرحلة الطفولة. فشخصيتاهما كانتا مبنيتين على مجموعة من الحقائق اليقينية والتحيزات العاطفية التي لا تقبل النقاش، وأحيانًا ما تعكس موقفًا استبداديًّا سلطويًّا، أو تؤدي إلى تصادم عاطفي عنيف فيما بينهما. وكانت كلمة «يجب» تتحكم فيما يتوقعانه منها. وكان يقهرها أن ترى في عينَي أمها خيبة الأمل لأن ابنتها لم تنجح في مجال التمثيل، حتى إنها ـ أي الأم ـ أحرجتها مرة بأن دعت لزيارتهم في بيت الابنة أحد كُتَّاب السيناريو، وكان زوجها «هي» لا يستلطفه، وكانت تلك الدعوة على سبيل «تسويق» ابنتها كممثلة. وكان آخرون يتساءلون عن سبب عدم قيام زوجها بإعطائها دفعة للأمام في هذا الصدد. لكنها كانت تعلم أنه ليس من ذلك النوع من الناس الذي يمكنه أن يطلب من الآخرين معروفًا أو جميلًا؛ بل إنها هي نفسها لم يكن هذا الأمر مطروحًا لديها من الأصل. فقد كانت تحرص على أن تفصل حياتها الزوجية عن حياتها العملية، على الرغم من شوقها إلى أن تُعمِّق وشائج ارتباطها

الشخصي به عن طريق مشاركته في حياة الفن، لكن معدات ولوازم صناعة السينما ومتطلباتها كانت مسألة أخرى، لها منطقها المختلف وناسها المخصوصون ذوو العقليات الخاصة.

وعودةً إلى موضوع ابنتها: قررت إرسالها إلى مدرسة مشتركة، لتجنيبها مشكلات نشأتها «هي» في مدارس للبنات فقط. ويبدو أن افتقارها إلى اليقين عمومًا سمح لها، بعكس والديها، أن تكون أمًّا أكثر ديمقراطية وتسامحًا وليونة. كم من الآباء يعتقدون أنهم يمكنهم التعلم من أبنائهم؟ أمر نادر بالطبع؛ فهؤلاء يعتقدون، لمجرد أنهم أكبر سنًّا، أنهم يمتلكون الحكمة المطلقة.

في أحد الأيام، عادت ابنتها من المدرسة، حيث بدأت تتعلم كيف تُصلي، حاملة سؤالًا: لماذا لا تُصلين يا أمي؟ أجابت ابنتها ببساطة: لأن المرء يمكنه أن يصلي بواسطة أعماله الطيبة؛ فتأدية الطقوس ليست كل الدين. كان التحدي الماثل هنا هو كيف تعطي فتاتك الحرية وفي الوقت نفسه تعلمها كيف تحفظ كرامتها في مجتمع شرقي؟ كانت لابنتها صديقة تأتي كثيرًا لزيارتها، وأمها سيدة محجبة. وكانت هذه البنت قد أخفت عن أمها أن من تزورها تذهب إلى مدرسة مشتركة وتستقبل في البيت أصحابًا من الجنسين. فقررت «هي» الاتصال بتلك الأم، وأخبرتها بجليَّة الأمر، وشرحت لها الطريقة التي تربي بها ابنتها تحت إشراف حنون، وأفهمتها أنها لا تحب أن تكون الأم الأخرى على غير علم بالأمر، إن كانت لديها قيم تربوية مختلفة، أو كانت تظن أن تلك الصداقة بين الطفلتين لن تكون ذات تأثير حسن على ابنتها.

كان من المهم أن تحترم «هي» البيئة التي تحيا داخلها، حيث كان عدد المحجبات، بعد رحيل عبد الناصر ومجيء السادات، يزيد باطِّراد، ولم تعد القاهرة تلك العاصمة الكوزموبوليتانية التي عرفتها ذات يوم؛ بل بدلًا من ذلك، حل مزيج من التزمت والعهر. وكانت هي تكافح في مواجهة عالم استهلاكي ينفتح، حيث الأطفال يحرصون على ارتداء ملابس تتحلى بعلامات لشركات عالمية؛ عالم لم تعرفه هي في طفولتها، حين كانت ترتدي زيًّا مدرسيًّا معظم الوقت. أما الآن، فقد كانت زميلات ابنتها في المدرسة لدى أُسرهن فيلَّات في الساحل الشمالي يقضين فيها الصيف كله. كانت عبئًا ثقيلًا؛ تلك المسؤوليات المادية والاجتماعية والأخلاقية الملقاة على كاهلها كانت تحديًا كبيرًا، مضافًا إلى حالة الحداد الداخلي الأبدي التي كانت تحياها، وتلك العقاقير المدمرة التي كان من المفترض أنها تحل كل المشكلات. كانت تريد لابنتها أن تشعر بقيمة الأوجُه الأخرى للحياة، ولا يقتصر وعيها وتقديرها على البُعد المادي وحده؛ ذلك البُعد الذي فاقمت من هيمنته العولمة والنزعة الاستهلاكية الحاكمة.

كانت تعتقد أن الإنسان يزداد قوة حين يجاهد نفسه للسيطرة على غرائزها، ونقاط ضعفها، وشهواتها. ففي كل الأحوال، ما السعادة؟ ـ تلك الكلمة التي تلخص كل ما يتمناه المرء لأحبابه ـ إنها، بالنسبة إليها: تلك الشبكة من الدعم التي يحتاج إليها الإنسان، والتي لم تجدها هي في طفولتها؛ كما أنها: أن تختار الواحدة شريك حياتها طبقًا لفضائله الذاتية، لا ممتلكاته أو مقامه المجتمعي؛ فلا

تُغَشِّي بصرها الثروة الدنيوية، مع امتلاكها القدرة على كسب عيشها بشكل لائق. لم يكن من المهم لديها أن تتعلم ابنتها في مدرسة إنجليزية، ولكن للأسف كانت تلك هي المدارس التي تمنح تعليمًا جيدًا مقارنة بالمصرية. وهي ظاهرة ظلت مستمرة حتى جاء وقت اختيار مدرسة لابنتها. وكانت المدرسة الألمانية التي التحقت بها الابنة تمولها الحكومة الألمانية ومصاريفها معقولة. وظلت على ذلك الحال حتى أوقفت حكومة ألمانيا تمويل المدرسة، بعد سقوط حائط برلين ووحدة ألمانيا من جديد. حقًّا، صار العالم قرية كبيرة؛ حيث الحدث البعيد يؤثر على كل ما هو محلي.

في مطلع القرن العشرين، لاحظت فيرجينيا وولف حدوث نقلة في العلاقات الإنسانية؛ سواء بين السادة والخدم، أو بين الزوج والزوجة، والآباء والأبناء. وتعتقد «هي» أن هذا يَصدُق أيضًا على مطلع هذا القرن، وقد صارت ابنتها أمًّا. «هي» الآن لديها حفيدان، بنت ثم ولد. أسعدها الحظ في حملها، وتحققت أمنيتها أن تلد بنتًا. في ذلك الوقت، لم تتوفر تقنية معرفة جنس المولود وهو جنين بالموجات فوق الصوتية. وربما كانت مهمتها في التربية ستكون أصعب لو أن المولود جاء ذكرًا. لكنها في الأغلب كانت ستتمنى، لها أو له، أن يتحليا بحس المسؤولية والروح الاستقلالية والقدرة على التواؤم والتأقلم.

إنها تتذكر حجرة طفولتها الكئيبة المظلمة في بيت جدتها. كل الأثاث الزائد عن الحاجة كان مكوَّمًا فيها؛ ذلك أن جدتها كانت تهوى ارتياد المزادات، والمزايدة على الأثاث العتيق، ومنه ما كان ينتمي إلى قصر فاروق، آخر ملوك مصر. فحتى المنتمون للطبقة الوسطى الدنيا كانوا يقلدون أساليب عيش أهل البلاط الملكي، فيقتنون كراسي صالون مذهَّبة من طراز لويس الرابع عشر لتزدحم بها بيوتهم المصرية المتواضعة.

كانت جدتها قد فرت من جحيم فلسطين حاملة بعض مجوهراتها، وكل الأوراق التي تثبت ملكيتها لما تركته وراءها في حيفا. وقد فعلت ما يُعَد استثنائيًّا بالنسبة إلى نساء زمنها: فبعد أن بلغت الأربعين، تخصصت في صنعة التجميل ومستحضرات الزينة. ولم يكن في قاهرة الأربعينيات صالونات تجميل؛ على الرغم من أنها انتشرت فيما بعد، في عقد الثمانينيات، بعد أن مر خمسة وثلاثون عامًا على إقامتها في مصر. ولهذا استطاعت جدتها أن تجتذب لصنعتها كل نجمات السينما المصرية إبان عقدَي الخمسينيات والستينيات، فقابلتهن «هي» في طفولتها، وكان وجودهن في بيتها أمرًا عاديًّا ومألوفًا. كما أن كل نساء الأرستقراطية المصرية كُن يبتعن من جدتها مساحيق ودهانات كانت تصنعها لهُن خصيصًا، بعد أن تلقَّت دروسًا في أساليب تحضيرها في باريس. وقد حكت لها جدتها كيف أصيبت بالرعب قبيل امتحانها في باريس بعد أن أنهت تلك الدروس، وكيف صفعتها معلمتها الفرنسية لتفيق وتدرك أنها ممتازة وليس هناك ما تخشاه. و«هي» لا تتذكر تلك السَّفرة، التي صحبت فيها جدتها أثناء الدراسة في باريس، إلا في صورة ضبابية غائمة. كل ما بقي في ذاكرتها: كيف تعثرت خطواتها لدقائق أثناء المشي في شوارع

باريس؛ والرعب الذي انتابها حين أخفقت أقدامها الصغيرة في مجاراة خطوات الكبار الواسعة، وظنت أنها لا محالة تائهة للأبد.

وحجرة طفولة ابنتها كانت هي الأخرى متواضعة؛ إلا أنها تميزت عن حجرتها هي بأن فيها لمسة الطفولة. فقد سمحت لابنتها بالكتابة والرسم على حائط الغرفة، وعلى باب الدولاب، وفي كل مكان بالحجرة عنَّ لها أن ترسم أو تكتب عليه. وعندما ذهبتا معًا لشراء أثاث شقتها بالإسكندرية ذات الغرفة الواحدة، رأت ابنتها سريرًا خشبيًّا أزرق اللون، يتعلق في السقف بحبال كشبكة النوم، فأصرت على أن تشترياه ليكون سرير حجرتها في القاهرة. وبعد أن اقتنته، دعت كل صديقاتها للفرجة عليه. وعلى الرغم من أن زميلاتها هؤلاء ربما كان أثاث بيوتهن أفخم بكثير، فإنها قرأت في عيونهن الحسد على ذلك الاهتمام والانتباه الذي منحته هي ابنتها بتلبية نزوتها الصغيرة؛ وهو انتباه ربما لم يحظين به في بيوتهن. وكانت الصرعة السائدة في ذلك الأوان، بين الأسر الغنية، اقتناء خادمات آسيويات لإدارة البيت، لا يتكلمن إلا بعض أنصاف الجمل الإنجليزية. وكنت أتساءل: كيف يكون لهؤلاء الصغار أي شعور وطني، بين مدرسة أجنبية يذهبون إليها كل صباح، وحين يعودون إلى البيت تستقبلهم مربية أجنبية.

وكان أميرها الصغير يحرص على تشجيع ابنتها على قراءة الروايات المصرية، ودائمًا يدعمها بملاحظات إيجابية حول سلوكها العام. كان يتمتع بحس دعابة مصري صميم أضاف إلى حياتهما بعض التوابل. وكان يعرف غريزيًّا كيف يتحدث مع الأطفال، دون الحاجة إلى قراءة كتب حول الموضوع كما كانت تفعل «هي». أما فيما يخص اختيار صغيرتها للأصدقاء، فقد كانت خبرته بالشارع المصري تجعله أكثر تبصرًا منها بالأمر؛ وكان دائمًا في نصائحه لها يثبت أنه كان على حق. وصارت معرفتهما أحدهما بالآخر ـ هي وأميرها الصغير ـ تتوثق لتشمل أشياء لم يبُح بها الواحد منهما لصاحبه من قبل.

كانت قلقة على حياة ابنتها العاطفية المستقبلية، في ظل صعوبة الحصول على شريك ورفيق مناسب. وكانت أول حالة غرام صبياني لابنتها قد أوقعتها في هوى ولد يمت بصلة قربى لزوجة شاعرها الأولى، وكانت تعتبره واحدًا من الأسرة. كانت في السابعة عندما أحست بطعنتها الأولى في القلب. قال لها الولد بصراحة صادمة، بعد توبيخ عنيف: «أنتِ لستِ من أسرتنا». كان فيما يبدو ولدًا حقودًا. وربما كان قد سمع من بعض الكبار في العائلة كلمة عابرة عنهما، وعن وضعهما الذي يضعهما في مصاف «الدخلاء» على القبيلة. وعندما بلغت ابنتها سن المراهقة، وقعت في حب فتى سويدي عرفته بواسطة الإنترنت. كان أخوها غير الشقيق، وهو حنون كأبيه، قد اشترى لها جهاز كمبيوتر هدية في عيد ميلادها، مما فتح أمامها مجالًا جديدًا لتبادل الخبرات مع أولاد وبنات في سنها على أثير الفضاء الافتراضي. وقد وصل بها الأمر مع ذلك الصديق السويدي إلى تبادل الزيارات، من مصر للسويد وبالعكس، لكن علاقتهما لم تستمر.

لم تدرك الأم أن ابنتها تحاكي سلوك تلك المعلمة الألمانية الشابة التي سكنت لديهما لوقت ما، ولم تقدم للأسف قدوة سلوكية جيدة لابنتها. فهذه المعلمة كانت لها علاقات عاطفية «طياري» مع بعض الرجال، إثر طلاقها من زوجها؛ لكنها «هي» لم تسمح لها بدعوة هؤلاء لزيارتها في البيت أثناء إقامتها عندهما. واحد من هؤلاء الأصدقاء الرجال أغاظه هذا «الفرمان»، إلى درجة أنه أطلق على بيتهما اسم «١٠ داوننج ستريت». ولعله تخيلها «هي» امرأة تاتشرية حديدية قائمة في هذا البيت، تحظر عليه التسلل والدخول إلى أعتابها الخاصة المقدسة.

أما ذلك الشاب السويدي، فكان فتى شديد الرهافة؛ حتى إنه بكى بحُرقة من شدة التأثر عند زيارته مستشفى حكوميًّا قاهريًّا، بعد أن طلب بنفسه أن يراه، فشهد مذهولًا قدر الإهمال والقذارة المعششين هناك. وأثناء إقامته عندهما، سمعتا لأول مرة عما يُسمَّى «التحديات المستقبلية للحاسبات الآلية وأثرها على الجنس البشري»؛ لأن ذلك الولد الأشقر أثناء إقامته لديهما كان يُعِد مقالًا مدرسيًّا في هذا الموضوع. وقد أطلق على صاحبة الحكاية لقبًا ما زالت تعتقد أنه يصلح عنوانًا ممتازًا لرواية: «المحاربة الصامتة». وقد تفاجأت ببلاغة هذا اللقب، الصادر من شخص لا يعرف عنها إلا القليل. ربما كان يراها تتمتع بسعة أفق تضعها في موقف حرج، في مجتمع شرقي هو عادة لا يسمح للفتيات باستقبال الجنس الآخر في بيوتهن. على كل حال، ظلت عبارة «المحاربة الصامتة» تتردد في رأسها، لأنها تراها تعبِّر عما قاسته في صمت من آلام، سواء في طفولتها أو بعد ترملها.

أبدت ابنتها موهبة منذ طفولتها، حين كانت تجمع صديقاتها وأصدقاءها الصغار لتمثيل مشهد مُتخيَّل، جاهلة بالطبع أنها بهذا كانت ممثلة ومخرجة في آنٍ. وحين كبرت قليلًا، صارت تسألنا عن مجال التمثيل. وكان أميرنا الصغير يحدثها عن التنازلات التي تضطر المرأة أن تقدمها في الكواليس حتى تحظى بدور أمام الكاميرا؛ فكان حديثه هذا ما جعل ابنتها تنفر من هذا الوسط. وسرعان ما نسيت الأمر، ووجهت طاقتها لكتابة الشعر والقصة القصيرة، ولكن، لسوء الحظ، بالإنجليزية في أغلب الأحيان.

لم تحدث هي ابنتها قَطُّ عن تجربتها الشخصية في مجال التمثيل. كان دافعها وراء امتهان التمثيل تلك الروح الجماعية التي ظنتها تميِّز هذا النوع من الفن، لكي تتداوى من خلال التعاون الجماعي الإبداعي من ذلك الشعور الطاغي بالوحدة الذي دمغ حياتها؛ لكن أملها في ذلك خاب تمامًا. فقد اكتشفت من خلال التجربة أن كل فرد من هؤلاء الممثلين كان طاووسًا في نفسه؛ أما المخرج فكان تطاوُسُه أشد! كان الوضع يختلف، ويبتعد أقصى البُعد، عن وَصْف شاعرها لفرقة بريخت المسرحية، حيث كل عضو، مهما صَغُرَ دوره، كان مهمًّا.

كانت قد لعبت دور شهرزاد، وبدت واعدة في مجال التمثيل. وقابلت على سلم العمارة أحد كبار المخرجين ـ وكان جارًا لهم ـ فهنأها على الدور، ثم تقابل مع زوجها، واتفقا معًا على التعاون في

تقديم عمل سينمائي؛ إلا أن المشروع لم يتم. فشخصيتاهما لم تنسجما معًا، وحدث تصادم بينها وبين المخرج في أكثر من مناسبة. كان يدَّعي أنه مثقف كبير، وعلى دراية تامة بمسرح الفودفيل، ويتصرف عمومًا كإله في مجال تخصصه. كان سلطويًّا، كأبيها وطبيبها النفسي. وقد صُدمت حين حكى لها، وهما جالسان في حجرة المعيشة، كيف أن كل كبار النجوم ـ الذين كانت ترى بعضهم في صالون تجميل جدتها ـ كان عليهم أن يدفعوا بشكل أو بآخر الثمن، لكي يتنازل فيقبل ظهورهم في أعماله. كان يملك مفتاح الجنة، مفتاح النجومية، وكان يتصرف على هذا الأساس. ولكن على أي حال، كان ما ورثته عن أبيها من مال ـ وهو أمر نغَّص عيشتها طوال حياتها ـ نافعًا هذه المرة؛ إذ منحها القدرة على تحدِّي سلطوية ذلك الرجل. فلم تكن مضطرة إلى تقديم التنازلات التي اضطر إليها الآخرون نظرًا إلى حاجتهم. كان أميرها الصغير على حق؛ فقد دخلت مجال التمثيل من قمته، بزواجها من كاتب سيناريو ومنتج سينمائي كبير؛ إلا أنها ـ ويا للعجب ـ تعرضت للأذى. فكيف كانت إذن أحوال أولئك الذين جاءوا مجال التمثيل من أسفل السلم، وتحت ضغط الاحتياج المادي؟! كيف نلومهم على تنازلات اضطروا إليها؟ إنها تعلمت أن تقبل الناس كما هم؛ وإن انتقدت سلوكهم بينها وبين نفسها، لا تسمح لذلك بأن يؤثر على تعاملها الشخصي معهم.

مع مرور الوقت، اكتسبت شيئًا فشيئًا شجاعة الجلوس مرة أخرى في حجرة مكتب زوجها الذي راح، حيث يقوم مكتبه الهائل الذي يكاد يبتلع الغرفة كلها؛ الجلوس في حضرة ذكرى ذلك الصباح، حين دخلت فاصطدمت برؤيته على كرسيه في غيبوبة، وبسرعة طلبت الإسعاف. ومرت سنوات توقفت فيها عن شرب شاي الصباح واستبدلت به القهوة؛ لكيلا يقتلها ألم استحضار عادتهما الصباحية: أن يشرباه معًا. لكنها اليوم تتجرأ على شرب شاي الصباح مع أميرها الصغير، مستعيدين معًا شقاوة أيام التلمذة. إنه حقًّا يعجبها، ويشبهها في أشياء كثيرة. فالمال لا يهمه كغاية في ذاته، بل فقط كوسيلة. وأحيانًا يُطلب منه الظهور في بعض الإعلانات، فيرفض بإصرار. وحين تحاول إقناعه بأن يقبل، لأنه سيتلقى مبلغًا كبيرًا في مقابل عمل قليل، يجيبها بأنه يأبى الترويج لشيء قد يكون تافهًا ولا ينفع الناس. وحين استحسنت حكمته في التعامل مع أسئلة ابنتها التي شغلتها ذات يوم حول مجال التمثيل، رد عليها بأن الأحوال الآن أسوأ بكثير. فقد صار بعض المنتجين يختارون لمسلسلاتهم حسناوات بلا موهبة، ليبيعوهن فيما بعد كفتيات جيشا لزبائن دولار النفط الأثرياء. ضحكت حين تذكرت ذلك الجار المخرج، الذي أصابه الغضب الشديد، حين عادت هي من سفرة للبنان بهدايا لكل زملائها في المعهد، متجاهلة إياه تمامًا. كان من المفترض عليها أن تسعى لإرضائه وتدليله وتدليك «أناه»؛ فقد كان يملك المفتاح لسماء النجومية المتلألئة التي يسعى لها أي ممثل شغوف بها. وقد بلغ به الغضب والسخط من موقفها منه، المنتفخ غرورًا وتكبرًا من وجهة نظره، أن استدعاها للعب دور صغير في فيلم تلعب دور البطولة فيه إحدى زميلاتها ـ وكانت هائلة الثديين صغيرة الموهبة ـ وبعد تصوير مشاهدها قص كل الجمل التي نطقت بها أثناء

المونتاج. كان يكرهها بعنف فيما يبدو؛ فقط لأنها حرة وتأبى العبودية!

لم تكن تدرك أن هناك تحيزًا ضد المرأة عمومًا؛ والنموذج الذي اتبعته كان أمًّا عاملة ذات نزعة استقلالية، تتصرف بحرية مثلها مثل الرجال. ولم تكن تحب الأدب «النسوي» الذي يركز على أوجه الاختلاف بين الجنسين، ربما دون قصد من الكاتبة. فقد كانت تعتقد بإصرار أن الثقافة، لا الكروموزومات، ولا حتى الهرمونات، هي العنصر الذي يحسم الوعي والإدراك، وأن العقل لا جنس له. فمن الممكن أن تكون ذكرًا وفيك في الوقت نفسه كل نقائص وعيوب النساء؛ مثل ذلك الثرثار النمام، الذي لم يكن يرحم سمعة نجوم السينما الذين طالما قدَّرتهم واحترمتهم. مثال آخر: كان أبوها بلا مهنة يرتزق منها، بينما كانت أمها مهنية محترفة. كان كلا الرجلين يتماثلان: سلطويين وضيقَي الأفق. ثم ما الفارق بين مارجريت تاتشر وجورج دبليو بوش؟ كلاهما كان سلطويًّا وخادمًا للنخبة ذات الامتيازات. المسألة ليست تتلخص في «من» يقودنا، وإلى أي «جنس» ينتمي، بل في النزعة والفلسفة والطبقة الحاكمة.

وقد عبَّرت هي لأميرها الصغير، الذي كان عميق الفهم كشاعرها، عن اعتقادها أنها، فيما يتعلق بالسينما والنجومية وذلك المخرج، قد تصرَّفت بما يتواءم مع شخصيتها، وليست نادمة على ما فعلته في ذلك الماضي البعيد. وجاء ذكر فتيات الجيشا، فحدثته عن مسرحية يابانية تحكي عن فتاة جيشا تتورط في حب عميل لها ذي دخل متواضع وتخطط للهرب معه؛ لكن زبونًا آخر عظيم النفوذ والثراء، وكان يهواها، يقرر قتلها لأنها لا تبادله الحب. فقال أميرها ضاحكًا: «لقد فعل بمستقبلك المهني [ويعني ذلك المخرج] ما فعله الثري بفتاة الجيشا». وأضاف أن الرجال من الممثلين يعانون أيضًا إذا كانوا ذوي خُلق؛ أما أولئك الذين «يحملون حقيبة» الشخص المتنفذ، فتعطى لهم الأدوار الكبيرة الكثيرة في مسلسلات التلفزيون، وقد يدفعون في المقابل جزءًا من أجرهم، أو يقدمون هدايا ثمينة، ويقيمون حفلات صاخبة، ويفعلون كل ما هو منتظر منهم على سبيل الثمن. كانت تستمع إليه صامتة، وعقلها يقول كم كانت هي وابنتها محظوظتين بوجود ذلك الأمير الصغير في حياتيهما. وكانت تتمنى ألا تبهرها سيارات الجاجوار، بل إنسان كوالد ابنتها ـ وشاعرها هي ـ أو كذلك الصديق، الذي يشبه شخصيات تشيكوف. كانت تريد لطفلتها أن تتمتع بحياة مادية مريحة، لم تحظَ هي بمثلها، على الرغم مما كانت تمتلكه من ثروة؛ وفي الوقت نفسه، أرادت لها أن تتعاطف مع الآخرين وتتمنى لهم الخير والرفاه، دون أن يعذبها الشعور بالذنب.

في أحد الأيام، بينما صاحبتنا تشارك في بروفة مسرحية، وتجلس منتظرة دورها، قال لها الجالس بجوارها بمرارة: «أنت لا تحتاجين ماديًّا إلى هذا الدور، ويجدر بك أن تتنازلي عنه لواحدة تحتاج إلى المال!». وقد آذاها كلامه هذا بشدة: فالعمل حاجة «إنسانية»؛ وليس مجرد احتياج مادي، وهذا ينطبق بالذات على العمل الإبداعي الخلَّاق. لقد كانت معرضة للإحباط بسهولة في كل منحى تسعى فيه، إلا في المسعى المقدس لأداء واجبها كأم، وعلى الرغم من كل ما تعانيه

من معوقات.

مع شاعرها في منزلهما بالمهندسين عام ١٩٨٥

كانت معجبة بشاعرها، وعاجزة عن أن تكتب مثلما يكتب. ولهذا اختارت مجالًا احتل لديها مرتبة ثانية: التمثيل. ألم يكن من الطبيعي أن يحاول المرء محاكاة مثله الأعلى؟ لكنها أثناء هذا لم تنتبه إلى أن موقف الناس في مصر من المرأة العاملة عمومًا لم يكن مشجعًا؛ فقد كان عليها ألا تزاحم الرجال وأن تترك لهم المجال لكسب العيش، فهذا دورهم الشرعي، الذي يدفعهم للجمع بين عملين إذا اقتضى الرزق ذلك.

إلا أن العمل هو أيضًا احتياج إنساني. وحين أنجبت مولودتها، فكَّرت في مهنة التدريس، بما أنها كانت نسبيًّا لا تتطلب وقتًا طويلًا في أدائها. وعلى ذلك، فقد انضمت لحضور فصل دراسي تأهيلي لتدريس الإنجليزية بالمعهد الدولي للغات، وكان يضم دارسين من ٣٥ دولة. وأثناء ذلك اصطدمت

بشخصية المعلمة الإنجليزية التي كانت تؤهلهم؛ فيبدو أن السيرة الذاتية التي قدمتها «هي»، جعلت تلك المعلمة تعاملها بطريقة خاصة لم ترحها. وقد نصحتها زميلة في الفصل، كانت أسترالية من الهيبيز، ألا تعبأ بتلك المعلمة وتركز فقط على الانتهاء من الفصل الدراسي لتعمل بالتدريس. وكانت تلك الأسترالية لطيفة بحق، وتحرص على الجلوس بجانبها. وكانت تطلب منها السجائر طوال الوقت، فتلبي هي الطلب سعيدة بأن تشاركها أخرى هواية التدخين. وكانت «هي» تحصل في واجباتها الدراسية على أعلى الدرجات؛ حتى غيرت المعلمة أسلوب الشرح، وصارت تعتمد على الخرائط والرسوم البيانية، وهي طريقة لم تعتدها هي في المدارس التي تعلمت فيها؛ إلا أنها استطاعت أن تتابع. المشكلة نشأت حين طلبت منها المعلمة أن تكون إجاباتها عن أسئلتها مختصرة؛ بينما كانت هي ترى صعوبة ذلك في بعض الأحيان، وإلا جاءت الإجابة منقوصة وغير مترابطة. ولأول مرة في حياتها الدراسية، استجمعت شجاعتها وقدمت شكوى مكتوبة للإدارة تتظلم فيها من أسلوب تلك المعلمة في معاملتها، إلا أنها لم تتلقَّ أي رد. بل إن المعلمة منحتها تقديرًا متواضعًا عند نهاية الفصل الدراسي، بحيث لم تحصل على رخصة التدريس. لكنها مرة أخرى استجمعت شجاعتها فأصرت على الحصول على شهادة من المعهد توثق حضورها لذلك الفصل الدراسي. وقد حصلت بالفعل على تلك الشهادة، وما زالت تحتفظ بها بين أوراقها الثمينة أو الأكثر أهمية، وحرصت ألا تفقدها أبدًا في تنقلها المتكرر من بيت لآخر. وهذا نص الوثيقة:

إلى من يهمه الأمر

حضرت م. ق. ١١٤ ساعة من مجمل ١٢٥ ساعة استغرقها الفصل الدراسي التمهيدي لتعليم اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية بالمعهد، في الفترة ما بين ١٤ يونيو و١٧ يوليو ١٩٨١.

وذُيلت الشهادة بتوقيع المديرة: مونيكا جريس.

شعرت بالانتصار، على الرغم من أنها لم تُتح لها الفرصة قَطُّ لممارسة التدريس. كما أن قواعد هذا المعهد كانت تنص على أن المخولين بالتدريس فيه هم فقط الإنجليز أو مواليد البلاد التي لغتها الأم هي الإنجليزية. وفي نفس التوقيت، كان المسلسل الفاشل الذي لعبت فيه دور عفريتة يبثه الأثير. فنصحتها المعلمة الحيزبون أن تركز في التمثيل وتنسى موضوع التدريس؛ على الرغم من أن أداءها في الفصل الدراسي كان طيبًا. فهل أساءت إلى تلك المعلمة حقيقة أن صاحبتنا من مواليد حيفا؟ وقد لاحظت أن زملاء الفصل كانوا ينظرون إليها بنفس الفضول الذي لمحته في عيون الإيطاليين في الطائرة حين اكتشفوا أنها وُلدت في تلك المدينة، أو ربما حقدت عليها تلك المعلمة لأنها تلقت تعليمها الثانوي في مدرسة داخلية مرموقة في إنجلترا. هي أبدًا لن تعرف السبب. وهل يؤخذ رأي المرء حين يُقرر والداه المستقبليان أن يناما معًا في أي بقعة من بقاع الأرض؟ هل يُستأذن في تحديد نقطة ميلاده على الخريطة؟

بعد موت زوجها، ترجمت بعض الكتب من الفرنسية والإنجليزية، على الرغم من كراهيتها لذلك العمل. فقد لاحظت أن ما يبدو دراميًّا حين يُكتب بالعربية يكون له وقْع ميلودرامي عند ترجمته للإنجليزية. لكنها لم ترضَ بحياة التعطل والتبطل، وكانت الترجمة هي كل المتاح لها في ظل الضغوط التي جابهتها، كما أن النقود التي جاءت بها الترجمة ساعدتها في مواجهة ارتفاع الأسعار. ولكم تعجبت كيف استطاعت، بعد تبذيرها غير المسؤول لما ورثته عن أبيها، أن تمر بسلام بالصعاب المالية التي حاصرتها بعد وفاة شاعرها. ذكَّرها ذلك بالمعجزة التي أوردها الكتاب المقدس على يد المسيح، حين تكاثر السمك بين يديه ليُطعم حشود مريديه الملتفين حوله. فبطريقة ما، كان ما في يديها كافيًا للجميع!

صارت تهُولها تلك الآراء التي تنادي بقعود المرأة في البيت. فكأن كل ما كافحت أمها من أجله يتفتت ويصير ركامًا. لا بد أن يعود البتُّ في اختيار كهذا للمرأة ذاتها. حتى الفن صارت تهاجمه تلك الأصوات المتحمسة للدين إلى حد الهوس. فهواء الروح، الأكسجين الذي يتطلبه الإبداع، صار يُسلب، ليختنق الناس ويُحرموا من التعبير. وغزا الفرنسيون إحدى جزر الكاريبي، ومنعوا سكانها الأصليين من المشاركة في العروض المسرحية. وهكذا أفلحت تلك الأصوات في تحقيق أهداف الاستعمار، فقط حين نادت بتحريم الفن! حتى أثناء الحملة الفرنسية على مصر، شكَّل المحتل فريقًا مسرحيًّا لإمتاع جنودهم، وحرَّموه على أهل البلد.

إلا أن الطريقة التي بها يُقدَّم الفن في بعض الأحيان تجعلها تشعر بالخجل والعار من انتمائها للوسط الفني. لكنها لم تفقد قَطُّ ولعها بالفن الحقيقي، الذي يحرك قلب الإنسان وعقله، وربما يتكامل مع الدين ليكملا معًا أقصى ما يمكن أن يبلغه وعي الإنسان والحس البشري. في قديم الزمان، كان الآباء يخشون تعليم بناتهم القراءة والكتابة، خشية أن يتعلمن كتابة الرسائل الغرامية، فيمرغن شرف العائلات في الوحل. أما «هي»، فقد ساعدتها القراءة أن تمر بسلام من نفق العزلة والوحدة المعتم، بل وأن تهرب من كينونتها الواقعية التي كم عذبتها.

كلما شهدت ميلاد أحد الأحفاد، كانت تبكي لأن «جدهم» لم يكن هنا ليراهم. لديها الآن حفيد ولد، جاء بعد حفيدتها التي بلغت الآن السابعة. ولكم يمتلئ قلبها بالبهجة، حين ترى الحب الأخوي الذي يتبادلانه معًا. لقد كان زوجها الذكر الوحيد بين ذرية من البنات. وكان التنافس بينه وبين كبرى أخواته البنات قد ترك بينهما بعض الندوب. وتتذكر «هي» أنها ذات يوم عادت من نزهة، مع ابنتها التي كانت يومها قد بلغت الثالثة، وأخبرت زوجها ضاحكة عن رد الفعل الهستيري لولد صغير حين قبَّلته ابنتهما فتعجب ساخطًا: «لماذا لا تفعل ذلك أختي أبدًا؟!». كان زوجها يكتب وقتها، فنظر إليها بانتباه بعينيه الواسعتين، تاركًا الورقة والقلم الرصاص الضئيل، الذي لم يكن من عادته التخلص منه قَطُّ حتى يفقد قدرته على الكتابة؛ نظر ولم يعلق. لم تفهم ساعتها لماذا لم يشاركها الضحك، وأرجعت هذا لانشغاله بما كان يكتب، فتركت الحجرة.

بعد هذا بوقت طويل، اعترفت أخته لها، بعد موته المأساوي، بأنها كانت خشنة معه أكثر من اللازم أيام طفولتهما، وتشعر الآن ببعض الأسف تجاه ذلك. كانا كلاهما قد التحقا بمدرسة الحقوق في جامعة القاهرة إرضاء لوالدهما، لكنه ترك تلك الدراسة في سنتها الثالثة، بينما أكملتها هي حتى تخرجت فيها. ومن المؤكد أنها كانت تشعر كفتاة ببعض التمييز في المعاملة، في مجتمع كان يعطي الأولوية للذكور، سواء صراحة أو بشكل غير مباشر، ويعتز بهم لأنهم من يحملون اسم العائلة ويخلدون ذكرها. وكان أبوهما يشعر بخيبة أمل لأن ابنه لم يكمل دراسته القانونية. وصارت الأخت تعامل أخاها بسلطوية، حتى بعد بلوغهما سن الرشد؛ أما هو فكان يدعوها، بكل الحب، بـ«الست الناظرة» أو بـ«كبيرة العائلة». وكان سعيدًا بأن امرأته ليس لها أي أقارب سوى أمها. فقد كان دائمًا يشكو لها بأنه أينما ذهب يقابَل بأقارب له أو لزوجته الأولى. أما «هي» فلم تكن على دراية بتعقيدات العائلات الكبيرة ذات التفرعات الكثيرة الممتدة. ولثقافتها الأجنبية، استغرقت بعض الوقت لتكتشف أن اللغة العربية تميز بين شقيق الأم فتدعوه بالخال، بينما شقيق الأب يسمَّى بـ«العم»، في حين أن الإنجليزية والفرنسية لا تفرق بينهما فتدعوهما في الحالتين «uncle» أو «oncle». وكان زملاء دراستها في معهد الفنون المسرحية يضحكون منها، حين تقول مثلًا: «الكرسي دي» بدلًا من «الكرسي ده»، لأن الكلمة مؤنثة في اللغة الفرنسية. وكانت في تجمعات العائلة تخلط بين الأقرباء وتنسى التفاصيل مهما كرروها عليها عن قرابة هذا أو ذاك. أما «هو» فكان يبتسم من أخطائها ويشرح لها بصبر مكررًا المعلومات التي دائمًا ما تنساها.

أما الآن فقد صارت تتساءل حول مستقبل حفيديها: هل يأتي يوم يعوق فيه اختلافهما في الجنس نمو الرابطة الوطيدة التي توثق بين قلبيهما؟ الناس لا يولدون آباء أو أمهات. وعاطفة الأبوة والأمومة، حتى لبعض الحيوانات، أحيانًا ما تكون ناقصة، فترفض قطة ما مثلًا أو كلبة أن تطعم صغارها، وقد تأكلهم في حالة القطط. إن الأمومة والأبوة فن، وصنعة، تجدها بعض الأمهات أو الآباء مملة وكئيبة، وتحلق طموحاتهم في اتجاه آخر. وقد استمعت مرة إلى إحدى عضوات نادي الجزيرة وهي تشكو من الحمل، لأنه يعطل حياتها الاجتماعية، وكان أكثر ما يعذبها في ذلك الصدد أن تفوتها الحفلات والسهرات الجميلة.

أما ابنتها هي، فكانت، لدهشتها، أمًّا بالفطرة، منذ أن جاءت للحياة. وقد أصرت حين كبرت على اختيار حياة ربة البيت، على الرغم من انتقادات بعض أقرانها الذين وجدوا لها وظائف جيدة رفضتها جميعًا مفضلة عليها أعمالًا لا تتطلب منها التفرغ، وذلك لتعطي جل وقتها لتربية الأبناء وحياة العائلة. وكانت، قبل تخرجها في الجامعة وبعده، تعمل، بل وحققت في عملها ذلك نجاحًا عظيمًا. وكان آخر عمل لها، قبل الحمل والأمومة، في هيئة ثقافية تمولها مؤسسة فورد الوقفية، وكانت تديرها سيدة متقلبة المزاج مرت بعدة زيجات فاشلة. وكانت ابنتها تحب كثيرًا عملها هذا، لكنها اضطرت إلى تقديم استقالتها تحت وطأة الضغوط نتيجة تقلبات العلاقة برئيستها، التي

اضطرت إلى تعيين ثلاثة أفراد لملء الفراغ الذي تركته ابنتها والقيام بالعمل الذي كانت تقوم به وحدها بنجاح، دون أن تقابَل بالتقدير الذي كانت تستحقه. وقد استقبل البيت قرار الاستقالة هذا بارتياح؛ زوجها، وأمها التي لم تكن بعدُ قد تركت البيت، ولم يكن الأبناء في ذلك الوقت قد جاءوا، وكانت الضغوط التي تعرضت لها ابنتها في تلك المحنة تتردد أصداؤها في البيت، وفي تعاملها معها ومع الزوج الذي حصل أخيرًا على عمل، بعد أن استغنوا عنه في عدة شركات كمبيوتر لكونه مهندسًا خبيرًا راتبه يكلفهم الكثير. ولم تتدخل هي في اختيار ابنتها، وواستها بتسليط الضوء على حقيقة أن الأمومة صارت الآن رفاهية يُحسد المرء عليها، بينما العمل اضطرار تدفع إليه فقط الحاجة المُرة للقمة العيش. كما أن العمل في هذه الأيام معناه الوحيد أن نساعد الشركات الخاصة العملاقة عن طريق السعي لتحقيق النجاح في الحياة العملية، في محاولة منهن لإثبات أنهن يتساوين في القدرة على ذلك مع الرجال، ويمتلكن المقدرة نفسها على الاضطلاع بأعباء تلك المسؤولية. لقد تحقق ذلك الهدف منذ زمن بعيد؛ والآن صار بإمكان الحفيدة أن تستمتع بترف الاختيار الحر.

لم يكن لديها «هي» الطاقة الكافية للقيام بذلك الجهد المزدوج: العمل العام وأعباء البيت والأمومة؛ في حين أن بعض النساء امتلكن تلك القدرة. وهي ترى أن المرأة تحتاج، منذ تربيتها في الصغر، إلى التدرب على المبادرة لتسلم القيادة حين تتعرض لطلاق أو ترمُّل، فتقوم بكل الأعمال وتضطلع بكل المسؤوليات الضرورية لاستمرار الحياة. والتعليم شرط هام، حتى لو قررت المرأة أن تقر في بيتها. إلا أن بناء الشخصية هو الشرط الأهم والمطلب العاجل لكي تستطيع المرأة مجابهة أي طوارئ.

ولذلك ظلت تعتز بأيام دراستها وإقامتها في تلك المدرسة الثانوية الداخلية في إنجلترا؛ لا للمعلومات الموجودة في الكتب والمكتبات، بل لتلك الأشياء الصغيرة: مثل توليها بالتدريج مسؤولية الإشراف على حجرات الطالبات باعتبارها ضمن التلميذات الأقدم والأكبر سنًّا، بما في ذلك طبعًا حجرتها هي، ثم التدرب على التصرف إزاء حوادث غير متوقعة، مثل اشتعال حريق فجأة، وهو أمر لم يحدث إطلاقًا لحسن الحظ طوال فترة إقامتها بالمدرسة. وكُن أيضًا يناقشن القضايا الثقافية التي تقدمها بعض برامج هيئة الإذاعة البريطانية (B.B.C). أيام كان البث لا يزال أبيض وأسود. كما كانوا يعطونهن دروسًا عملية في مصارعة الجودو لإكسابهن القدرة على صد أي محاولة للاعتداء الجنسي عليهن، مثلًا: لو صادفهن سوء الحظ فجلس بجوارهن في السينما متحرش.

وكانت تستمتع هناك أيضًا بطقوس الكنيسة الميثودية التي تتميز بالبساطة، حيث كان مدرس الفلسفة بمدرستها الداخلية قسًّا يلقي مواعظ رائعة، إذا قيست بكلام الوعاظ الحالي على شاشة التلفزيون. وقد أهداها ذلك الأب (المدرس)، كهدية وداع عند تخرجها في تلك المدرسة، نسخة من كتاب برتراند راسل «تاريخ الفلسفة الغربية»، وكانت امرأته تعزف على البيانو وتغني مدائح جميلة للرب، وكان كل هذا وجهًا يناقض تمامًا ما تربت عليه في مدرسة الراهبات الفرنسية حيث

كانت الصلوات والتراتيل باللاتينية، تلك اللغة الميتة التي لم تكن التلميذات يفهمنها بالقدر الكافي. وعلى الرغم من أنها كانت في إنجلترا محرومة من الأصدقاء والأسرة والوطن، فإنها استفادت بالتأكيد بتلك اللمسات الحضارية التي اكتسبتها في سنوات ثلاث قضتها في المدرسة الداخلية هناك، حتى إنها حين كانت تُسأل عن مدة إقامتها في تلك المدرسة، يُخيَّل إليها أنها طالت لخمسة أو ستة أعوام، فقد تركت تلك التجربة آثارًا وانطباعات لا تُمحَى على عملية بناء شخصيتها.

والآن وقد بدأت تشيخ، لم يعد لها من صلات الدم سوى ابنتها والأحفاد. وكانت قد بدأت تستعد لهذه المرحلة من حياتها من قبل أن يعوق حركتها مرض التهاب المفاصل بوقت طويل؛ حتى إنها ذهبت إلى طبيبة نفسية لكي تساعدها في التهيؤ لمواجهة «العُش الخاوي»، بعد أن خُطبت ابنتها، وبدأت تخطط مع شريك حياتها المستقبلي للهجرة إلى كندا. لم تقف في وجه سعادتهما، على الرغم من أن الحياة وحدها بدون ابنتها الوحيدة، كانت أمرًا سيشق عليها لو حدث. وحين عدل الخطيبان عن فكرة الهجرة، لم يكن هذا بتدخل منها، أو من أجلها.

هل كانت حياة ابنتها ستتغير للأفضل إن كانا بالفعل هاجرا، قبل أن يتورطا فيما تفضل الآن أن تنعته بالانتفاضة الشعبية؟ قبل أن يشهدا الأصدقاء وقد زُج بهم في السجون دون محاكمة عادلة، أو فقدوا عينًا أو عضوًا أو حياتهم نفسها في ميدان التحرير؟ في ذلك الأوان، كان ٦٠٪ من المصريين أعمارهم أقل من الثلاثين، وهي ميزة لم تستثمرها الحكومة لخير البلاد؛ بالعكس، صاروا مستهدفين من كل الحكومات التي جاءت بعد مبارك. أما «هي» فلا تدري ما الطريق الذي كان من الأفضل أن تسلكه.

كانت «هي»- في الستينيات ـ قد اختارت العودة إلى مصر، ظنًّا منها أنها تملك بعض النفع لهذا الجزء من العالم؛ إلا أنها اكتشفت أنها لا تملك مقومات تحقيق إنجاز كهذا. كانت النجومية والنبوغ والتفوق على الآخرين أمرًا يبعث فيها الشعور بالوحدة. وعلى الرغم من أنه كان دائمًا محاطًا بالمحبين والمعجبين، فقد كان نجاح شاعرها يخلق في المقابل نفوسًا حاسدة تبحث دومًا عن أي مبرر لمهاجمته. وكانت هي واحدة من محبي فنه الأوفياء، إلا أنها أحبته لصفاته الشخصية، كرجل بسيط يتعرض لعذابات وإحباطات. فلم يكن نبوغه الأدبي وحده هو ما جذبها إليه، بل تواضعه وتعاطفه الإنساني. وقد قال الفيلسوف كيركجارد ذات مرة إن جذب جمهور من الناس ليس هو الفن. إلا أن شاعرها قد فعلها؛ لقد جذب حب الناس في وقت الأزمات، وكان صوت ضميرهم. لم يمُت بالمرض، بل بالشعور بالاغتراب. والرحيل أحيانًا يحتاج إلى الشجاعة نفسها التي يتطلبها البقاء. وكان «هو» مليئًا بمؤهلات التميز أكثر مما يجب. وقد احتشدت جنازته بالأدباء والفنانين والصحفيين والأصدقاء؛ لكن أحدًا منهم لم يحزن عليه بنفس العمق الذي اخترق قلب رجل الشارع. ربما لأن كثيرين من تلك النخبة كانوا يحسدون ـ وما زالوا ـ موهبته. وتذكر هي أن إحدى النساء العاديات، صادف أنها كانت تمر بالقرب من مسجد جنازته، فصكت صدرها كدأب الريفيات حين

عرفت بالخبر، كأنه واحد من أهلها الأقربين.

ربما كانت قد عادت إلى مصر ليكون في انتظارها ذلك الحضن النهائي؛ ذلك الرجل الذي احتضن وجعها الدفين، وداواه بقدرته على معرفة ذاتها أكثر منها بما يملكه من بصيرة. لقد كان «هو» وطنها المقدور، ولحظة استضاءتها واستبصارها لمعنى كل ما مضى وما سيجيء، بحيث رممت به ما تفتت من فسيفساء روحها، واستطاعت أخيرًا حل لغز كلمات حياتها المتقاطعة.

مع شاعرها في مطعم في بيروت عام ١٩٦٨

سألتها طبيبتها النفسية، وقد تعجبت من أساها المفرط كلما حل شهر أبريل من كل عام، وحضورها إليها في ذلك الموعد الموسمي كسيرة الفؤاد: «ما الذي تفتقدينه فيه بالتحديد؟»، فذرفت دمعة، وكان ردها الهامس كلمة واحدة: «وجوده»، ثم رسمت بيديها مأوى وأضافت: «اثنان وحيدان يظللهما سقف واحد». وكانت تلك الطبيبة دائمًا ما تهنئها على قدرتها النادرة على فتح الجروح القديمة؛ وهو أمر يخشاه الناس في معظمهم، الذين عادة ما يفضلون ترك شياطينهم العتيقة رابضة في أعماق عقولهم، ويخبئون رؤوسهم كالنعامة في الرمال، بينما يتحاربون فيما بينهم ويقاتلون العالم كله. وقد عملت مع طبيبتها في تعاون وثيق لحل عُقد خيوط الماضي. وحين سافرت إلى الإسكندرية تمت بينهما جلسات عبر الهاتف. كانت حرفيًّا في غرفة عمليات، والماضي يفور من جرحها بلا مورفين مخدر. وكانت الدموع تقطر على تنورتها وهي تكويها بهمة، أو تمشي

على رمال الشط في ثوب أسود باتجاه شمس الغروب، احتفالًا بعيد ميلادها الذي جاء بلا دعوة!

انزعجت ابنتها حين رأت الأم تقرأ كتابًا عن الشيخوخة. فلقد كانت في الخمسين لا تزال. وقالت لأمها غاضبة: أنت تبدين أصغر من سنك. وتبنت موقف الإنكار كلما لمحت أمارة من أمارات التقدم في العمر أو مشكلة تصاحب مرور عام جديد من عُمر أمها. ولم تكونا تتحدثان فيما بينهما إطلاقًا عن رحيل أبيها ـ قبل الأوان ـ حين كانت الابنة في السادسة من عمرها. كانت تتمنى أن تسامحه ابنتهما ذات يوم، كما فعلت هي، حين انسحبت إلى بيت عزلتها وكفَّت عن تعاطي أدوية النفس، وقضت هناك سنوات وحدها، تستمع إلى غناء الطير وتستمتع بالصمت. لقد سامحتهم جميعًا: أمها، وأباها، وشاعرها.

لماذا يخاف الناس الموت إلى هذه الدرجة؟ لقد شعرت بسلام عجيب يغمرها وهي تتصور نفسها راقدة في قبر، بعيدة عدة أميال عن هذه الفوضى القذرة التي صنعتها يد الإنسان، بعد أن استراحت من سماع الأصوات الغاضبة، المتصايحة في وجدانها، متوحدة مع الطبيعة، الطبيعة التي كانت تهدهدها وهي نائمة في غابات بريطانيا، وتحتضنها في غربتها عن الأوطان ثلاث سنوات بَدَوْن كأبدية، وعظامها تحتفظ بذكرى يدَي شاعرها الذي لم يكن قَطُّ يراها «عيِّلة» مدللة تمتلك كومًا من المال، بل كانت يداه تضمان برفق وحنان ذلك الطير مكسور الجناحين الذي كانته، وتلمَّان قطع الفسيفساء المفتتة ـ التي كانت روحها ـ لتلتئم من جديد، بعد أن استنشق عبير الزهرة الملقاة في بركة وحل على الطريق.

منذ بدأ الزمان، كان هناك الخير، وهناك الشر، والحالمون والطغاة، والناس العاديون والاستثنائيون. واعتقدت «هي» أنه حين تختلف الأحوال وتعتدل كفتَا ميزان القوة بحيث يحدث بعض التوازن بين الأمم، ستكف البلاد التي احتكرت القوة فيما قبل عن اعتبار نفسها وريثة المُلك الإلهي؛ وهو الحق نفسه الذي نسبوه لأنفسهم ملوك وأباطرة الماضي ـ أقول: اعتقدت أن أحوال كوكبنا ربما سوف يسودها في النهاية السلام والاستقرار، ومن المحتمل أنه مع تحقق الوحدة الاقتصادية ما بين دول «البريكس» (BRICS) من ناحية (وهي تضم الهند وروسيا والبرازيل والصين وجنوب أفريقيا وتمثل ٦٠٪ من عدد سكان العالم وأضخم ناتج محلي عالمي) وما بين دول أمريكا اللاتينية من ناحية أخرى، ستكون تلك هي الخطوة الأولى لتحول الأرض إلى مكان أفضل لسُكنى البشر يتمتع به أحفادها والأجيال الجديدة في المستقبل. لكنه ما زال من المبكر ترجيح حدوث هذا الاحتمال. أما الآن، فإن الانتشار السريع، كنمو نبات الفطر، للمدارس الأجنبية في مصر يرعبها: فهي ليست فقط باهظة التكاليف؛ بل إنها أيضًا تدلل تلاميذها، المدللين أصلًا، من أبناء محدثي النعمة على حساب كرامة المدرسين، فتستمع وتستجيب لشكاواهم مهملةً شكوى المعلم منهم. بل إن بعض المدرسين يتم فصلهم أو تهديدهم بالرفت، إذا هم انتقدوا سياسة المدرسة المتسيبة على أساس أنهم بهذا يسيئون لسمعة تلك المدرسة. فمثل هذه المدارس يديرها في حقيقة

الأمر تلاميذها الأعزاء، الذين يدفعون مصاريف دراسة فلكية لا يدفع نصفها التلاميذ في البلاد الأوروبية التي جاء منها أصحاب هذه المدارس. ولا أحد يهتم بما سيحدث لهؤلاء التلاميذ حين يكبرون، وكيف سيتعاملون مع المرؤوسين من الموظفين والعمال في الشركات التي سيرثها هؤلاء عن آبائهم؛ وفي المقابل، أصبحت مدارس الحكومة كارثة، تُفرخ فيها المقررات الدراسية ببغاوات عاجزة عن أي فعل خلَّاق في أي مجال. وقد قرأت «هي» في مكان ما أن الطفل المصري يولد أكثر ذكاء من أي طفل آخر في العالم، حتى يدخل المدرسة فتنقلب الأحوال! فالمؤسسات التعليمية هنا لا تملك الأساليب الفعالة اللازمة لتغذية تفوقه الفطري. فالرسالة التي استخلصتها «هي» عبر تنقلها من مدرسة إلى أخرى ومن بلد إلى بلد: أن العامل الجوهري في أي تعليم ليس المناهج المقررة، بل قدرة المدرس على منح تلاميذه مهارة التفكير المستقل التي سيحتاجون إليها في مستقبلهم.

لقد واجهت هي الشيخوخة بالأمل، وهي مرحلة من العمر عادة ما نعتبرها الأكثر هشاشة وقابلية للكسر في مسيرة حياتنا. لقد كانت دائمًا تعتقد، لسبب غامض، أنها ستكون أسعد حين تشيخ؛ وهذا ما حدث، وبمعجزة، على الرغم من أنها أصيبت بالتهاب المفاصل، وها هي تكمل مسيرة حياتها بعكاز! لقد تقاعدت وانسحبت واعتزلت الناس في بيت في الضواحي يحيطه السكون والخضرة، بعيدًا عن أمواج البحر المتوسط، وضجة الشاطئ، في مرحلة من أكثر مراحل تاريخ مدينتها ضوضاء وصخبًا؛ أعني: مسقط رأسها حيفا، التي اقترح عليها صحفيون من إسرائيل زيارتها، بعد توقيع اتفاقية السلام المزعوم الشهيرة.

ربما تكتب مذكراتها وتهديها لطبيبتها النفسية، التي أخبرتها أنها يومًا ما ستتوقف عن تعاطي أدوية النفس، وأنها تملك القدرة على الكتابة، فقط لو توقفت عن الشك في تلك القدرة. وقد ساعدتها تلك الطبيبة ببراعة على بلوغ محطة الشيخوخة بعقل أكثر صفاء بكثير مما كان عليه الأمر مع طبيبها القديم.

وأصبحت الآن، بجواز سفرها المصري، لها الحق في أن تطالب باستعادة أملاك أسرتها في فلسطين، التي تقاتل عليها الأجداد طويلًا في الماضي. ولكن كيف سيسمح لها ضميرها بهذا، بينما الأرض في فلسطين ما زالت مصادرة من أيدي أصحابها من السكان العرب الذين يعيشون هناك؛ منزوعة على الرغم من كل اتفاقيات السلام؟! وقد جادلها في ذلك بعض الأصدقاء قائلين إنها بموقفها هذا لن تحل مشكلة فلسطين بالزهد في حقها. واقترح عليها محامٍ إسرائيلي من أصل عربي أن تبيع تلك الحقوق بكل مشكلاتها وتحصد في المقابل تلًّا من الدولارات، إذا أرادت. وقال إنها لا تحتاج حتى إلى أن تسافر، بل يمكنها حسم الأمور بالفيديو كونفيرانس في قاعة محكمة إسرائيلية.

لكنها أحست أنها لو كانت تملك جواز سفر فلسطينيًّا لمزقته على رؤوس الأشهاد، كما يفعل بعض الأمريكيين في هذه الأيام، احتجاجًا على سياسات حكومتهم. إلا أنه بالطبع ليس هناك شيء

اسمه جواز السفر الفلسطيني، أو الدولة الفلسطينية؛ فقطعة الأرض الضئيلة التي تركوها لنا تتسلط عليها «حكومات» مزعومة متحاربة فيما بينها على من له السلطة الوهمية على شريط هامشي من الأرض، محتل فوق ذلك، يحتشد داخله زحام من الأرامل والأيتام وضحايا جرائم الحرب الذين تشوهوا إلى الأبد. ففي ظل الإمبراطورية البريطانية، تحول القراصنة إلى أسياد. والآن ترى «هي» كل الساسة، المفترض فيهم أنهم يمثلون الشعب؛ تراهم قراصنة وترزية فصَّلوا القوانين على هوى ومزاج النخبة الأثرياء. كان الفتى البريطاني ـ الذي كان يومًا صديقها ـ على حق، في مطالبته بحل كل الحكومات! فالذين «يمثلون» شعب فلسطين، الشعب الذي اجتثته إسرائيل كأشجار الزيتون أو كالبيوت التي من حجر بلا روح؛ أولئك الساسة الذين لا قلب لهم، الذين يقبضون على السلطة بأيدٍ لا تقبض في الحقيقة إلا الهواء، لم تتحرك ضمائرهم! إن الأمر كله عبث، لا يختلف في شيء عن عمل من مسرح اللامعقول، كمسرحية صمويل بيكيت «في انتظار جودو»، حيث مجموعة من سجناء الدنيا، يحاصرهم الأصدقاء والأعداء، ينتظرون مخلصهم الوهمي «جودو»! إنها من مواليد شهر يوليو؛ فهل كانت حياتها «حلم ليلة صيف»؟ هل الدنيا «خشبة مسرح» والناس مجرد «لاعبين» لأدوار عابرة عليها؟ منفذين لحبكات وورطات درامية نسجتها يد آخرين؟ إن التاريخ للغز. من الذي طلب من عمال العالم أن يتحدوا؟ لا تستطيع أن تتذكر. لكن يبدو أن نُخَب الأثرياء، وهي بطبعها قليلة العدد، استغلت قلتها العددية في أن تتمكن بسهولة من تنظيم صفوفها لكي تقف في وجه خطر توحد العمال المحتمل ضدها، بتفصيل قوانين تحميها وتدمر كل المكتسبات العمالية التي راكمتها ثورات التاريخ. فمتى ستكف الأمم العربية عن لعب دور الدمية على مسرح العالم؟ هي لا تؤمن بالتغير الفجائي للتاريخ. فالتغير الحق لا يحدث إلا بالتدريج، ويتطلب إعادة ترتيب مفاهيم الذات والآخر.

ما الدروس التي استخرجتها هي من خلاصة تجارب ثلاثة أجيال من النساء في غربة الشتات الفلسطيني؟ مع كل نقاط ضعفهن، كانت كل واحدة منهن رائدة من نوع ما وبطريقتها الخاصة. كان أمرًا غير عادي أن تدرس جدة تخطت عقدها الخامس علم التزين وتفتح صالون تجميل مزدهرًا، لكي تكسب عيشها بعد أن فقدت كل شيء. أما أمها «هي» فقد كانت ريادتها في أنها امرأة تعمل بالصحافة تخصصت في العمل الإخباري لجريدة يومية. كانت هناك نساء قبلها يكتبن مقالات صحفية؛ لكنها أول من نزلت إلى الشارع وغطَّت أحداثًا فارقة على أرض الواقع، وأجرت تحقيقات وأدارت حوارات مع شخصيات هامة تزور مصر بمجرد وطئها أرض المطار. أما «هي»، فربما كانت إنجازاتها أكثر تواضعًا. لم تصبح كاتبة مشهورة، أو نجمة سينمائية لامعة، ولم تراكم ثروة أبيها نظرًا إلى إسرافها الطفولي السفيه، فهي كانت تلفظ المال لما كان يوقظه في قلبها من ذكريات؛ إلا أنها أفلحت في أن تحافظ على مستوى عيش محترم لها ولأسرتها. كان الأمر كمعجزة السمكة في عرس حضره السيد المسيح، التي توالدت بين يديه حتى أطعمت حشد

المدعوين كله، في قصة الإنجيل التي تحب دائمًا أن تذكِّر نفسها بها. لم تكن تعمل بذلك المثل العامي المصري الذي يقول: «القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود»؛ لأنها كانت تجد سعادة في أن ترى المحيطين بها فرحين بأن حظوا بمساعدة مالية منها، وكانت هي تفرح بكسب المال من ترجمة بعض الكتب.

ربما لم تحقق أي شيء، إلا أنها تشعر بالرضا والتحقق. فيكفيها أن تكون رائدة على نطاق ضيق، في صُنع أشياء صغيرة تبدو عادية. فقد كانت زوجة متفانية وأمًّا متفانية، بينما حولها كان كثير من الأسر يتمزق رباطها ويتفتت، ومفهوم الحب الأُسري يتم تزويره أو يُساء تفسيره. إن الحياة يحسم مذاقها ما تفعله أنت، وإلى أي مدى تنجح أو تفشل في منع المؤثرات الخارجية من التحكم في حياتك!

إن المبالغة في الحفاظ على الشباب، وتقديسه الذي يقارب العقيدة الدينية، طالما أثار عجبها. فالناس يندفعون إلى جراحات التجميل كي يبدوا أمام الآخرين وكأنهم ما زالوا في ميعة الصبا. فهل حقًّا الشباب هو أجمل فترة في حياة الإنسان؟ إنها لم تقابل الشيخوخة بقلب واجف. فجسم الإنسان دمية لا بد أن تكسر ذات يوم. أما الروح، فهي كما حكت والدة شاعرها لأحد الأحفاد ذات يوم، شارحة حقيقة الموت: بأن طلبت من ذلك الحفيد أن يملأ غلاية بالماء ويضعها على الموقد حتى تغلي، ثم يراقب الماء وهو يتحول إلى بخار حتى ينفد كله، وانتهت من ذلك إلى أنها حين تموت ستكون ذلك البخار وستظل «هناك»، لأن عقل الإنسان يترك أثره ويعلن حضوره عند زوال الجسد. «هي» الآن لم تعد قادرة، بفعل الشيخوخة، على أن تقوم بأعمال البيت في شقة أحلامهما الواسعة، التي جاهدت لتحافظ عليها من أجل ابنتها، ونجحت في هذا على الرغم من الألاعيب «القانونية» غير القانونية التي لجأ إليها بعض هواة القانون لحساب رجال أعمال ماكرين لاغتصاب الشقة منها. والآن هي منهكة ومستنفدة القوى، ولا تمانع في بيعها لتتمكنا من تغطية تكلفة تعليم أجنبي أفضل وأكثر كلفة لحفيدتها، أو لمواجهة أي تحديات مادية قد تعترضها في المستقبل.

ذهبت لزيارة ابنتها بقدمين ثقيلتين، وقلب أثقل، وعقل ينوء تحت حِمل ذكريات لم تقوَ على حذفها من سِجِلِّ الوعي: ذكريات شجارات عائلية وقضايا مرفوعة أمام المحاكم. كان جدها قد قال لها ذات يوم إن رجال الأعمال في الماضي، حيث لم توجد أوراق رسمية لتوثيق الصفقات، كانوا أكثر أمانة ونزاهة من رجال اليوم. اتصلت هاتفيًّا بسائق التاكسي الذي اعتادت على التعامل معه، وطلبت منه أن يأتي لتوصيلها. فحين تتقدم في العمر، ترتاح للوجوه التي اعتدتَ على رؤيتها. كان ذلك السائق شابًّا يكافح لتوفير ثمن سيارة أجرة تخصه، وقد تزوج منذ فترة قصيرة. ومن العجيب أنه كان يشبه ذلك الصديق الإيطالي الذي صاحبته ذات يوم! وكان لا يزال يحتفظ بذلك الدفء الذي تجده عادة عند المصريين، حتى بعد تلك التبدلات السلبية التي أحاقت بالشخصية المصرية في

السنوات الأخيرة. ثرثرت مع السائق أثناء التوصيلة حول السيارات، وماركاتها المتوافرة في السوق حاليًّا. وحكت له عن سيارتها الأولى، مرسيدس بنز، ثم البيجو، وأخيرًا الفيات المصنعة محليًّا ماركة ريجاتا، التي تشاركت مع زوجها في دفع ثمنها واحتفظت بها بدافع الإخلاص حتى انتقلت إلى بيت عُزلتها. إلا أنها اضطرت في النهاية للتفريط فيها ـ على الرغم من المعزَّة ـ لكثرة أعطالها. فجاء تعليق السائق المندهش: «هذا معناه يا مدام أنك انحدرت للأسفل دائمًا في مسيرة اقتنائك!». فانفجرت في قهقهة صاخبة ذكرتها بضحكة أيام الصبا التي اشتهرت بها، ثم قالت: «نعم، بالتأكيد!». كان تعليق السائق ذكيًّا جدًّا، لأنه لخَّص مسيرة حياتها! ربما لو استمع راكب آخر إلى تعليق كهذا، كان سيشعر بالإهانة. أما هي، فقد تخففت لبعض الوقت من ثِقل قلبها، والهم الجاثم عليه من تصوُّر المشاق الممكنة لعملية استردادها لممتلكات الأسرة في فلسطين، الذي تحمست له مضطرة من أجل خاطر جيل العائلة الطالع. جلست ببطء وصعوبة بين ابنتها وزوج ابنتها، آخذةً نفسًا عميقًا، ثم قالت بصراحة ودون مقدمات: إنها مكتفية بمعاشها وسعيدة به، لكنها على استعداد لتحمل كل مشقة في سبيل بيع ممتلكات العائلة في فلسطين، وذلك لخاطر عيونهما، بعد أن كوَّنا معًا أسرتهما الخاصة، في ظل حياة ترتفع كلفتها يوميًّا. ولسعادتها، وجدت أمامها زوجين شابين استثنائيين، استطاعا على الرغم من العصر المادي الذي يعيشان فيه، والعقلية الاستهلاكية التي تسيطر عليه، أن يقبضا على جمر المبادئ الأخلاقية الرفيعة، وبلا تردد يرفضان فكرة العرض الذي قدمته لهما. كانت لم تحكِ لابنتها أي شيء عن طفولتها «هي» البائسة، في قلب بيت أسرة فلسطينية مزقها الشتات، وحضن أم انتزعته الصحافة منها وشغلتها تمامًا عنها على الرغم من احتياجها الممض إليها. لكنها الآن، وهي تسترجع تلك الأحوال، بعد أن بلغت سن الحكمة، واستجمعت من جديد قطع الفسيفساء المبعثرة التي تساقطت من روحها فالتأمت من جديد في لوحة وجدانها، تجد نفسها قد شفيت تمامًا من مشاعر المرارة والحقد تجاه أمها؛ تلك المشاعر التي كم عذبتها في الماضي، حتى إنها تشعر الآن بالدهشة من اهتمام ابنتها بالقضية الفلسطينية! يبدو أن عودة صديقتها رينيه للظهور في حياتها بعد موت شاعرها، بإصرارها الخارق للطبيعة ـ الذي ورثته عن أمها «هي» من طول مشاركتها في الكفاح ـ على إحياء قضية فلسطين، يبدو أنه أثَّر في ابنتها أكثر مما تصورت! أما فيما يخصها هي، فيظهر أن كراهيتها لنفسها وكل ما يتعلق بها من أصول قد بلغت بها حدًّا بدت معه فلسطين قضية غريبة عنها ـ كالفصل العنصري في جنوب أفريقيا مثلًا ـ بعد أن نأت بنفسها عن جذورها الحقيقية، وهو أمر ساعد عليه تعرضها لتأثير ثقافات متعددة في سنوات تكوُّنها.

قد تبيع الأجيال التالية شقة حلمها، لكنهم لن يبيعوا الحلم نفسه! تبارك اليومُ الذي أدركت فيه أن الشاب الذي تزوج ابنتها يحمل نفس صفات شاعرها، دون أن يكتب شعرًا، على الرغم من كل الصعوبات والتحديات التي تواجهه هو وابنتها، وتواجه جيلهما، وعلى الرغم من عذابات أفول

وإخفاق «الربيع العربي». لم تعد ابنتها، كما وصفتها هي ضاحكة في الماضي، ذلك «الوحش الاستهلاكي الصغير»، عندما كانت ابنتها لا تزال مراهقة. لقد اختارت الآن شريك الحياة الصحيح والمناسب. إن ابنتها الوحيدة قد أحسنت الاختيار، وهي مطمئنة عليها. يمكنها الآن أن تعتزل، وأن تغادر الحياة بقلب يملأه السلام وعقل مرتاح. ومن الغريب أنها حين ودعتهما ذاهبة، كانت أوصالها أكثر خفة ونشاطًا، ومرض التهاب المفاصل الذي تعاني منه كان يبدو وكأنه موسيقى خافتة في الخلفية!

وتستمر الحياة. يلتقي الأزواج من العشاق ما زالوا منذ أن بدأ الزمان. تختلف أسماؤهم وتتباين جنسياتهم، ويسكنون مناطق جغرافية متعددة، وحكايا حُبِّهم قد تكون معروفة وقد تبقى مجهولة، ولكنها كلها تضيء كأشعة الشمس ذلك الخد المعذَّب والمعذِّب لكوكبنا، فيشرق بوعود غدٍ أفضل!

خاتمة

في أزمنة ما قبل التاريخ، كان كبار السن يُوَقَّرون ويُبجَّلون من أجل ما اكتسبوه من حكمة راكمتها التجارب في أوقات الأزمات. فكان هؤلاء يقودون ويوجِّهون الأصغر سنًّا عند مواجهة تحديات البقاء. أما في هذا الزمن الحديث المثقل بالتناقضات، التائه بين المعلومات والدوافع المتصارعة، والمسؤوليات المتفاقمة الضاغطة على كاهل الأُسَر لسَدِّ حاجاتها بالكاد، فقد انقطع الاتصال بمعدَّل متزايد ما بين الجيل والآخر، وكثر الكلام حول ما يُسمَّى بـ«جيل السندوتش»، المحاصر ما بين العناية بالأطفال ورعاية الوالدين المُسنَّين فوق ذلك.

كل جيل كانت له مشكلاته وتحدياته الخاصة، والتي صارت الآن أكثر تعقيدًا من مجابهة وحش مفترس، أو مكافحة انهيار أرضي، وغير ذلك من مخاطر الطبيعة. وقد اكتشف الإنسان البدائي المنظومة السحرية للعلامات والكلمات، التي ساعدته في التغلب على البيئة الطبيعية المعادية، والتعاون على بناء الجسور وشق التُّرع وإقامة الصروح. إلا أن حضارات كاملة قد اندثرت وسط التساؤلات والتخمينات عن سبب أفولها وانهيارها.

وبدأ القرن العشرون وانتصف، وسط حروب عالمية وأشكال جديدة من الأفكار والتصورات المجردة لمفهوم البقاء للأصلح، من خلالها صار التنافس لا التعاون أساسًا لخلق مُناخ من التعصب وعدم التسامح حتى في أزمنة السَّلْم. وصار الناس يعيشون ويموتون دون أن يعثروا على معنى جوهري لوجودهم، في زمن لم يمنحهم رفاهية التأمل، وتحت بيئة استهلاكية «تزغطهم» طوال الوقت بفلسفتها، ورسائل إعلامية مخلوطة، ما بين وسائل إعلام جديدة تنشأ وأخرى قديمة تندثر ببطء.

صار لزوجة الشاعر حافز ضاغط يدفعها لأن تترك خلفها، إضافة لممتلكاتها الدنيوية، خلاصة تجربتها الإنسانية، ليرثها الجيل الطالع في الأزمات الكوكبية المعقدة وأزمة الهوية المحمَّلة بالأثقال؛ صار على زوجة الشاعر أن تلتقط الشعلة من فيرجينيا وولف التي اكتسب أسلوبها، في تسَكُّعها الأدبي بين التجارب، تلك الشروخ العميقة والتشظيات التي تحملها نفوس الرجال والنساء في زمننا المعاصر.

وعلى الرغم من بُعد المسافة جغرافيًّا وثقافيًّا، تظل فيرجينيا وولف تذكرها بأمها جاكلين. فهاتان المرأتان، المتباعدتان مكانًا والمتقاربتان ذكاءً ورهافة، تعرضتا كلتاهما لعذابات عقلية متشابهة. وكلتاهما ماتت منتحرة. وقد تلبَّست كلتاهما بنفس العفريت الذي يسميه طب النفس الحديث بـ«الاكتئاب». لكن فيرجينيا كانت في الثامنة والخمسين حين هدمت بيتها اللندني القنابل، بينما كانت جاكلين في الثامنة عشرة حين فقدت بيتها ووطنها وهاجرت أسرتها إلى مصر.

في زمن قصير، تبدلت السياسة تمامًا: من زعيم حارب ذات يوم في فلسطين، إلى زعيم صار وسيطًا في صفقة سلام مع إسرائيل. وتبدل وجه مصر الثوري، التي خرجت أمها في سفوره، بآمال عالية وحذاء عالي الكعب، منضمة لحملة المطالبة بحقوق المرأة الاقتصادية والسياسية، ودعكت بقدميها أسفلت حواري وأزقة أحياء القاهرة الفقيرة، داعية لمرشح حدث في زمنه سفور المرأة؛ إلا أن وجه مصر الثوري تنقَّب بعد انتصار عام ١٩٧٣ العسكري. وجلست جاكلين تشاهد

في صمت المشهد التاريخي لزيارة رئيس مصر (التي لم تعد تعرفها) لتل أبيب، وبعدها بقليل ابتلعتها هوة انهيارها النهائي في عامها السادس والخمسين. وأصدر الاستشاريون المزعومون فرمانًا يقضي بإيداعها مصحة نفسية. وبإحساس السجين، بعد أن طالبت سُدى أهلها بفك ذلك الأسر، قررت جاكلين الهرب من الوجود كله، تاركة ابنتها الحبلى مفجوعة وحيرى، دون أن تجد من يشرح كيف فقدت ذات العقل المضيء عقلها!

اليوم، وهي تنظر إلى الخلف نظرة التأمل لذلك النجم اللامع الذي هوى فجأة ومسار عمره القصير، وبعد أن تغلبت على مشاعر الاستياء والنقمة، صارت زوجة الشاعر تدعو تلك الأم، مستخدمة مصطلحات الماركسيين الذين كانوا يحيطون بها، بـ«أميرة البروليتاريا» الهاربة من الأسر. كانت آخر لمحة حظيت بها لأمها، وقفتها في شرفة الطابق الثالث للمصحة وقد ملأها الإحباط من رفض طبيبها مشؤوم الوجه لأن يسمح لابنتها بأن تصعد لزيارتها في ذلك اليوم، على الرغم من أنه كان يوم الزيارة. نظرت ومن معها إلى الأم في الشرفة، نظرة شعراء أوروبا الجوالين المنشدين على القيثارة في القرون الوسطى (التروبادور) للسيدة المحبوبة في عليائها السجينة، وقلوبهم تدندن غنوة حب موءودة يخنقها الأسى واليأس.

كان شاعرها هو الآخر في السادسة والخمسين حين انقلب الحال فجأة. ذهب تاركًا خلفه ابنة في السادسة من عمرها، كان يعبدها، وفي اعتقادها «هي» أنه كان يدللها. فلم يكن يحتمل أن يراها تعاقَب على نوبات الصراخ، حين يسوء مزاجها، بأن تُحبس لبعض الوقت في غرفتها. وعلى العكس من جاكلين، كان هو غريزيًّا لا يطمئن لأطباء النفس هؤلاء، وبالكاد يرضى أن يتناول عقاقيرهم. وحين أبصر ذلك الوجه المشؤوم لطبيب النحس ذلك الصباح في المصحة، امتلأ وجدانه بنذير مبهم. وكان يعامل حماته برقة و«شياكة»، وشاركها في آمال الماضي وطموحاته. وفي يوم انقلاب الأحوال، جاءته خطابات تهديد بالقتل ـ لم تكن الأولى ـ من بعض الإسلاميين المتطرفين. وأحد تلك الخطابات وصلت به الوقاحة إلى التشكيك في أبوته لابنته الصغرى. وكان قد وصف له طبيب من الجيران دواءً جديدًا لاحظت «هي» أنه أصابه بتقلبات مزاجية متتالية، صاحبها سلوك غير معتاد. فصار يحتفل ويشرب مع معارف غير مقربين من الممثلين والممثلات. وتوقف إنتاج قلمه الغزير كسيف تثلَّم. وتحت الإلحاح، كتب أغنية كانت الأخيرة في عيد الأم، حملت كل مشاعر المودة لمن عرفهن من النساء، بدءًا من أمه التي كانت تحكي له في الطفولة خليطًا من حكايات فرسان القرون الوسطى الإنجليز وحواديت تراث الشعب المصري؛ ثم أخته ذات النزعة القيادية التي تصغره بعامين، والتي خُتِّنت عند البلوغ، واحتفظت ذاكرتها بتلك الصدمة التي حكت عنها لزوجة أخيها الشاعر بعد أن بلغت كلتاهما مرحلة الشيخوخة؛ ثم الفلاحة التي رآها ـ عندما كان لا يزال في مرحلة التكون ـ غارقة في دمائها؛ ثم ابنته الكبرى التي كان يشكو من أنها تعامله كما لو أنها أمه الصغيرة عندما ضبطته وهي طفلة يدخن الشيشة؛ ثم أخيرًا ذلك التوقير الذي كان يشعر به

تجاه تلك السيدة الواقفة في شرفة المصحة: حماته جاكلين! وكعادته في الكتابة، استخدم لتلك الأغنية الأخيرة أبسط الكلمات؛ تلك المستخدمة في نداء الأم أو في التحية بين الناس كل يوم، لكنه أضاف كلمة كلاسيكية واحدة تجمع بين الإجلال وطلب الحماية، هي كلمة «مولاتي» التي أضافها لتحية صباح وجهها لكل النساء: الأم والأخت والابنة، قائلًا: «صباح الخير يا مولاتي!»، ثم اختفى، وكأنه فارس ساموراي خسر المعركة، وليس كرجل أو امرأة فشلا في تدبير أمور المعيشة؛ ذهب في أبريل: حيث تعود الطبيعة الخضراء للتبرعم من جديد، في نفس الشهر الذي كسرت فيه جاكلين أغلالها.

وكان الميراث الذي اكتسبته زوجة الشاعر إرثًا من الإنجازات العظيمة والقضايا النبيلة، وحكايات تتأرج بعطرهما الحلو والمُر، يتضوع منها جمالهما وعذابهما؛ أريج شهداء زمن السلم.

وهو تراث يتحدى كل منطق، ويشكل حجر الأساس لبنيتها النفسية التي صمدت واستطاعت البقاء على الرغم من كل شيء. وهي الآن تأمل في أن تظل تلك السيرة العطرة مبعثًا لقدرة أحبائها على الصمود والبقاء في المستقبل؛ وربما للإنسانية كلها.